الفصل الأول

ترجيحات الإمام الآلوسي في التفسير بالمأثور

ويشتمل على مبحثين :

- المبحث الأول :

تعريف التفسير بالمأثور ومنهج الإمام فيه.

- المبحث الثاني :

عرض ودراسة ترجيحات الإمام الآلوسي في التفسير بالمأثور

obeikandl.com

المبحث الأول
تعريف التفسير بالمأثور ومنهج الإمام فيه

أولاً : تعريف التفسير بالمأثور :

المأثور في اللغة :

اسم مفعول من أثرت الحديث أثراً من باب نقل وحديث مأثور أي منقول. (١)

يخبر الناس به بعضهم بعضاً ومنه المأثرة وهي المكرمة لأنها تنقل ويتحدث بها. (٢)

وفي الاصطلاح :

ما جاء في القرآن الكريم نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته وما نقل عن الرسول ﷺ وما نقل عن الصحابة رضوان الله عليهم وما نقل عن التابعين من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم. (٣)

ثانياً : نشأة التفسير بالمأثور :

مما هو واضح أن نشأة هذا النوع من التفسير تعلم من اسمه وذلك من خلال الرواية عن رسول الله فإن رسول الله بين لأصحابه ما أشكل عليهم من معاني القرآن فكان هذا القدر من التفسير يتناوله الصحابة بالرواية بعضهم لبعض ولمن جاء بعدهم من التابعين الذين تتلمذوا على أيديهم وهكذا ظل التفسير يتضخم طبقة بعد طبقة وتروي الطبقة التالية ما كان عند الطبقات التي سبقتها وتزيد عليها حتى ابتدأ دور التدوين. (٤)

ثالثاً : منزلة التفسير بالمأثور :

التفسير بالمأثور أفضل أنواع التفسير وأعلاها لأنه :

إما أن يكون تفسيراً للقرآن الكريم بكلام الله تعالى فهو أعلم بمراده وإما أن يكون تفسير له بكلام الرسول فهو المبين لكلام الله تعالى وإما أن يكون بأقوال الصحابة فهم الذين شاهدوا التنزيل وهم أهل اللسان وتميزوا عن غيرهم بما شاهدوه من القرائن والأحوال حين النزول (٥) وإما أن يكون تفسيراً له بأقوال التابعين الذين أخذوا علمهم عن الصحابة .

رابعاً : مصادر التفسير بالمأثور :

وهي المصادر التي يعتمد عليها التفسير بالمأثور ويصدر عنها :

---

(١) – انظر : لسان العرب جـ ١ ، ص ٢٥ والمفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني المتوفى ٥٠٢هـ ، ص ١٥ مادة أثر تحقيق محمد سيد كيلاني ، ط دار المعرفة – بيروت .

(٢) – المصباح المنير لأحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي جـ ١ ، ص ٤ ، مادة أثر ،ط المكتبة العلمية – بيروت .

(٣) – التفسير والمفسرون للذهبي جـ ١ ، ص ١٥٤ .

(٤) – المرجع السابق نفس الجزء والصفحة .

(٥) – بحوث في أصول التفسير ومناهجه ص ٧١ .

أولاً : القرآن الكريم :

وهو أصح طرق التفسير قال ابن تيمية " أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر " . (١)

فعلى من أراد أن يفسر القرآن أن ينظر في آيات القرآن الأخريات ويجمع الآيات ذات الموضوع الواحد فإن ما أجمل في موضع قد يبين في موضع آخر وما أشكل في موضع قد يوضح في موضع آخر وما جاء في آيات مطلقاً قد يقيد في آيات أخر وما ورد عاماً قد يدخله التخصيص في آيات أخر وما جاء موجزاً في موضع قد يفصل في موضع آخر وبهذا يكون قد فسر القرآن بالقرآن . (٢)

ثانياً : السنة النبوية :

فإنها شارحة للقرآن وموضحة له بل قد قال الشافعي كل ما حكم به رسول الله فهو مما فهمه من القرآن . (٣)

قال تعالى ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (٤)

ثالثاً : تفسير الصحابة رضي الله عنهم :

قال ابن تيمية : وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح لاسيما علماؤهم وكبراؤهم (٥) ويقول الشيخ مناع القطان " وكان الصحابة يفهمون القرآن لأنه نزل بلغتهم ". (٦)

رابعاً : تفسير التابعين رحمهم الله :

إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين فقد كان منهم أئمة في التفسير تكلموا فيه ووضحوا لمعاصريهم خفي معانيه. (٧)

هذه هي أهم مصادر التفسير بالمأثور وقد تتعارض بعض المصادر مع بعض في تفسير آية من كتاب الله تعالى يرجع ذلك إلى ضعف السند أو ضعف استنباط المفسر ومخالفته للقواعد الصحيحة للاستنباط وهذا ما حدا بالمفسرين إلى الترجيح بين هذه

---

(١) – الفتاوى الكبرى جـ ١٣ ، ص ٣٦٣ .

(٢) – بحوث في أصول التفسير ص ٧٤ .

(٣) – الفتاوى الكبرى جـ ١٣ ، ص ٣٦٤ .

(٤) – سورة النحل آية ٤٤ .

(٥) – مقدمة في أصول التفسير ٩٦ .

(٦) – مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع خليل القطان ص ٣٤٥ ، ط مكتبة وهبه ، القاهرة، الطبعة السابعة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

(٧) – التفسير الكبير لابن تيمية جـ ٢ ، ص ٢٣٧ .

الأقوال التفسيرية وبينوا الراجح من المرجوح ومن هؤلاء المفسرين الإمام الآلوسي رحمه الله .

وهذه هي ترجيحاته في جانب التفسير بالمأثور أعرض أولاً ترجيحه ثم أبين الأسس التي سلكها الآلوسي في الاختيار سواء أكان مصرحاً به عنده أو استنبطه بتوفيق الله تعالى فإن كان هذا الاختيار راجحاً أقرره أتم تقرير ثم أذكر بعض من وافقه على هذا الترجيح من المفسرين إن وُجد .

وأما إن كان هذا الاختيار مرجوحاً أبين الراجح في المسألة بالأدلة وأذكر من اختاره من المفسرين وهاك البيان .

obeikandl.com

المسألة الأولى
المراد بالعمل عمل القلب والقالب

في قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [١]

قال الآلوسي رحمه الله :

" والمراد بالعمل ما يشمل عمل القلب وعمل القالب ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن جرير [٢] وابن أبي حاتم [٣] وابن مردويه [٤] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال :

---

(١) – سورة هود آية ٧ .

(٢) – جامع البيان جـ ٧ ، ص ٩ ، قال محققه صدقي جميل العطار عن هذا الحديث " لم أجد هذا الحديث في شيء من الصحاح وفي إسناده عبد الواحد بن زيد البصري منكر الحديث ضعيف" قال فيه البخاري عبد الواحد صاحبُ الحسن تركوه وعن يحيى ليس بشيء وقال النسائي ليس بثقة وقال الدارقطني ضعيف وقال الجوزجاني سيء المذهب ليس من معادن الصدق وذكره الساجي وابن الجارود في الضعفاء فقال : كان ممن يقلب الأخبار من سوء حفظه وكثرة وهمه فلما كثر ذلك منه استحق الترك وعبد الواحد هو شيخ الصوفية وأعظم من لحق الحسن وغيره . ، انظر : ميزان الاعتدال في نقد الرجال لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى ٧٤٨هـ جـ ٣ ، ص ٣٨٧ ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ط دار الفكر ، بيروت ، والضعفاء والمتروكين للإمام جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي جـ ٢ ، ص ١٥٥ ، تحقيق عبد الله القاضي ، ط دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) – ابن أبي حاتم : محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي الغطفاني ، أحد الأعلام ولد سنة خمس وستين ومائة سمع الكثير حتى إنه ليتعذر استقصاء مشايخه كان من بحور العلم طوف البلاد وبرع في المتن والإسناد وجمع وصنف وجرح وعدل وهو من نظراء البخاري وطبقته لكنه عمر بعده أزيد من عشرين عاماً مات في شعبان سنة سبع وسبعين ومائتين . انظر : سير أعلام النبلاء جـ ١٣، ص ٢٤٧ ، طبقات الحفاظ للسيوطي جـ ١ ، ص ٢٥ . انظر : تخريجه الحديث في كتابه تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله والصحابة والتابعين تحقيق أسعد محمد الطيب جـ ٦ ، ص ٢٠٠٦ رقم الأثر ١٠٧٠٥ ، ط مكتبة نزار مصطفى الباز – مكة المكرمة – الطبعة الثانية ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .

(٤) – ابن مردويه : الحافظ المجود العلامة المحدث أبو بكر أحمد بن محمد بن ثابت بن عثمان بن موسى بن مردويه بن فورك بن جعفر الأصبهاني صاحب التفسير الكبير والتاريخ والأمالي من تصانيفه التفسير يقع في تسع مجلدات وكتاب المستخرج على صحيح البخاري قال الذهبي هو أكبر من أن تدل عليه وعلى فضله وعلمه ذكره ابن حبان في الثقات " انظر : سير أعلام النبلاء جـ ١٧ ، ٣٠٨ ، وطبقات الحفاظ للسيوطي جـ ١ ، ص ٤١٢ . = والحديث نسبه إليه ابن حجر في الكاف الشاف على الكشاف وقال فيه أخرجه ابن مردويه عن عبد الواحد بن زيد عن ابن عمر " انظر : الكشاف للزمخشري جـ ٢ ، ص ٣٨٠ .

تلا رسول الله هذه الآية " ليبلوكم " الخ فقلت : ما معنى ذلك يا رسول الله ؟ قال " ليبلوكم أيكم أحسن عقلاً ثم قال " وأحسنكم عقلاً أورعكم عن محارم الله تعالى وأعملكم بطاعة الله تعالى " لكن ذكر الحافظ السيوطي أن سنده واه. (١) وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان : أحسن عملاً أزهد في الدنيا (٢) وعن مقاتل (٣) أتقى لله تعالى (٤) وعن الضحاك (٥) أكثرهم شكراً (٦) ولعل أخذ العمل شاملاً للأمرين أولى . (٧)

المعنى الإجمالي للآية :

ذكر سبحانه وتعالى علة الخلق العجيب للسماوات والأرض وهي نفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه ولم يخلق ذلك عبثاً فقد أتم إعمار الكون وتجهيزه للإنسان من أجل اختباره ومعرفة الأحسن عملاً فمن شكر وأطاع أثابه الله ومن كفر وعصى عاقبه . (٨)

---

(١) – انظر : الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي ٨٤٩هـ - ٩١١هـ تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي جـ ٨ ، ص ١٨ ، ط مركز هجر للدراسات العربية الإسلامية – القاهرة – الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .

(٢) – مسند ابن أبي حاتم جـ ٦ ، ص ٢٠٠٦ رقم الأثر ١٠٧٠٧ ونسبه إلى سفيان ابن الجوزي في زاد المسير جـ ٤ ، ص ٧٩ .

(٣) – مقاتل : هو مقاتل بن سليمان البلخي صاحب التفسير والمناكير روى عن الضحاك ومجاهد والزهري قال البخاري : مقاتل لا شيء البتة وقال وكيع : كان كذاباً وعن أبي حنيفة أتانا من المشرق رأيان خبيثان جهم معطل ، ومقاتل مشبه وقال ابن المبارك ما أحسن تفسيره لو كان ثقة وقال وكيع مات مقاتل سنة خمسين ومائة ، انظر : سير أعلام النبلاء جـ ٧ ، ص ٢٠ ، والضعفاء والمتروكين لابن الجوزي جـ ٣ ، ص ١٣٦ ، وأحوال الرجال لأبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني جـ ١ ، ص ٢٠٢ ، ط مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - تحقيق صبحي البدري السامرائي .

(٤) – نسبه إلى مقاتل كل من أبي حيان في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ١٢٦ ، والقرطبي في الجامع جـ ٩ ، ص ٩ ، والماوردي في النكت والعيون جـ ٢ ، ص ٤٥٩ .

(٥) – الضحاك : هو الضحاك بن مزاحم الهلالي كان من أوعية العلم وليس بالمجود لحديثه وهو صدوق في نفسه حدث عن ابن عباس وأبي سعيد الخدري وغيرهم وثقة أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وحديثه في السنن لا في الصحيحين توفى سنة اثنين ومائة من الهجرة ، انظر : سير أعلام النبلاء جـ ٤ ، ص ٥٩٨ ، وميزان الاعتدال جـ ٢ ، ص ٣٢٥ ، وطبقات المفسرين جـ ١ ، ص ١٢٢ .

(٦) – نسبه إلى الضحاك كل من أبي حيان في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ١٢٦ ،والقرطبي في الجـ ـ ٩ ، ص ٩ والماوردي في النكت والعيون جـ ٢ ، ص ٤٥٩ .

(٧) – روح المعاني جـ ٧ ، ص ١٦ .

(٨) – التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي جـ ١٢ ، ص ٢٢ ، ط دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

دراسة النص :

نلاحظ في هذا النص أن الإمام الآلوسي حكى أربعة أقوال في المراد بالعمل المذكور في الآية وهي كالآتي :

القول الأول : أن المراد بقوله " أحسن عملاً " ما يشمل عمل القلب والقالب .

القول الثاني : أن المراد بقوله " أحسن عملاً " أزهد في الدنيا .

القول الثالث : أن المراد بقوله " أحسن عملاً " أتقى لله تعالى .

القول الرابع : أن المراد بقوله " أحسن عملاً " أكثرهم شكراً .

ورجح الإمام الآلوسي القول بشمول العمل للقلب والقالب وكانت قاعدة ترجيحه في ذلك " **وجوب حمل نصوص الوحي على العموم ما لم يرد نص بالتخصيص** " وكلام الإمام في هذه المسألة كلام سديد غير أنه يحتاج إلى الاستدلال وهذا ما سأقوم به إن شاء الله تعالى وذلك لما يأتي :

أولاً : أن ما استدل به الآلوسي من حديث رسول الله وإن كان سنده واه إلا أن العمل به أولى من تركه خاصة أنه لا يترتب عليه حكم من الأحكام .

ثانياً : أن ما رجحه الآلوسي من أن العمل يشمل الاثنين قول حسن وقد جمعه النبي ﷺ في لفظ واحد وهو قوله لسفيان بن عبد الله الثقفي [١] لما قال " **يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم** " . [٢]

ثالثاً : أن الإثنين أشد وثاقاً ببعضهما القلب والقالب فإن الإنسان الضعيف إذا لاحظ أن ربه جل وعلا ليس بغائب عنه وأنه مطلع على كل ما يقول وما يفعل وما ينوي لان قلبه وخشي الله تعالى وأحسن عمله لله عز وجل . [٣]

وكما جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم حيث فسر الإحسان عندما سأله جبريل عليه السلام عنه فقال " **أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك** " . [٤]

رابعاً : أن العمل غير مختص بعمل الجوارح ولذلك فسره النبي ﷺ بقوله " أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله " فإن لكل من القلب والقالب عملاً مخصوصاً به فكما أن الأول أشرف من الثاني فكذا الحال في عمله كيف لا

---

(١) – سفيان الثقفي هو : سفيان بن عبد الله بن أبي ربيعة بن الحارث الثقفي الطائفي أسلم مع الوفد وسأل النبي ﷺ عن أمر يعتصم به ، أخرج حديثه مسلم والنسائي واستعمله عمر على صدقات الطائف ، روى عن النبي ﷺ وعمر وعنه وأبناؤه عاصم وعبد الله وعلقمة . الإصابة جـ ٣ ، ص ١٠٥ . تهذيب التهذيب لابن حجر جـ ٤ ، ص ١٠٢ ، ط دار الفكر ، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

(٢) – صحيح مسلم كتاب الإيمان باب جامع أوصاف الإسلام جـ ١ ، ص ٦٥ حديث رقم ٣٨ .

(٣) – أضواء البيان للشنقيطي جـ ٣ ، ص ١١ .

(٤) – جزء من حديث طويل أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة وبيان النبي " انظر فتح الباري جـ ١ ، ص ١٥٦ ، حديث رقم ٥٠.

ولا عمل بدون معرفة الله عز وجل الواجبة على العباد [١] فاشتمال العمل على القلب والقالب أولى وأحسن .

خامساً : أن عمل القلب هو الموصل لعمل القالب والباعث عليه إن كان خيراً فخيراً وإن شراً فشراً قال تعالى: ﴿ **قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ** ﴾ [٢][٣]

سادساً : أن المراد بالعمل ما يعم عمل القلب والجوارح لأن التقوى وأحسنية العمل تدل على كمال العقل وصحة العقيدة . [٤]

وعليه فإن ما رجحه الآلوسي في هذه المسألة هو الراجح فالله تعالى خلق هذا الكون وأمده بمقومات الحياة ثم خلق الإنسان ووهبه العقل والتفكير والاختيار والقدرة على عمل الخير والشر فلا بد لهما معاً حتى يتبين الأحسن عملاً .

---

(١) – إرشاد العقل السليم لأبي السعود جـ

(٢) – سورة الإسراء آية ٨٤ .

(٣) – تفسير القرآن الكريم للدكتور عبد الله شحاتة جـ ٦ ، ص ٢١٧٣ ، ط دار غريب – القاهرة الطبعة الثانية ١٩٩٩م .

(٤) – حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي جـ ٥ ، ص ٧٦ ، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت .

obeikandl.com

المسألة الثانية
شمول العذاب للكفرة

في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ [١]

قال الآلوسي رحمه الله :

" ولئن أخرنا عنهم العذاب " أي المترتب على بعثهم أو الموعود بقوله سبحانه **﴿ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾** [٢] وقيل : عذاب يوم بدر وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قتل جبريل المستهزئين وهم خمسة نفر أهلكوا قبل بدر [٣] والظاهر أن المراد العذاب الشامل للكفرة ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن المنذر [٤] وابن أبي حاتم عن قتادة. [٥]

قال : لما نزل " اقترب للناس حسابهم " [٦] قال ناس إن الساعة قد اقتربت فتناهوا فتناهى القوم قليلاً ثم عادوا إلى أعمالهم أعمال السوء فأنزل الله سبحانه **﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ**

---

(١) – سورة هود اية ٨ .

(٢) – سورة هود آية ٣ .

(٣) – نسبه إلى ابن عباس أبي حيان في البحر جـ ٦ ، ص ١٢٦ ، والنيسابوري في غرائب القرآن ورغائب الفرقان جـ ٤ ، ص ٨ ، ضبطه الشيخ زكريا عميرات ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م والزمخشري في الكشاف جـ ٢ ، ص ٢٠٩ ، وبدون نسبة في الجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ١٠ .

(٤) – ابن المنذر : الإمام الحافظ العلامة شيخ الإسلام أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري الفقيه نزيل مكة وصاحب التصانيف منها : الإشراف في اختلاف العلماء وكتاب المجموع والمبسوط وغير ذلك قال النووي : كان لا يتقيد بمذهب معين بل يدور مع ظهور الدليل توفى سنة عشرة وثلاث ومائة ، انظر : سير أعلام النبلاء جـ ١٤ ، ص ٤٩٠ .

(٥) – قتادة : هو قتادة بن دعامة بن عزيز الدوسي الضرير الأكمه المفسر رأس الطبقة الرابعة كان حافظاً واعياً يقول عن نفسه ما قلت لمحدث قط أعد علي وما سمعت أذناي شيئاً إلا وعاه قلبي قال عنه سعيد بن المسيب ما أتاني عراقي أحفظ من قتادة روى تفسيره عنه شيبان بن عبد الرحمن التميمي مات بالطاعون في واسط سنة ثماني عشرة ومائة ، انظر : طبقات المفسرين للداودي جـ ٢ ، ص ٤٧ ، والطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٧ ، ص ٢٢٩ ، ط دار صادر – بيروت ، والجرح والتعديل لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي جـ ٧،ص ١٣٤ ، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت سنة ١٩٥٢م ، وسير أعلام النبلاء جـ ٥،ص ٢٦٩ .

(٦) – سورة الأنبياء آية ١ .

﴿ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [١] فقال أناس من أهل الضلالة : هذا أمر الله تعالى قد أتى فتناهى القوم ثم عادوا إلى عكرهم عكر السوء فأنزل الله تعالى هذه الآية إلى أمة معدودة " . [٢][٣]

المعنى الإجمالي للآية :

ولئن أخرنا بفضلنا وكرمنا عن هؤلاء المشركين العذاب إلى حين من الزمان على وفق سنتنا وحكمتنا ليقولن على سبيل التهكم والاستهزاء واستعجال العذاب ما الذي يحبسه فأجابهم الله سبحانه وتعالى بأنه إذا جاء الوقت الذي عينه الله تعالى لنزول ذلك العذاب لم يصرفه عنهم صارف . [٤]

دراسة النص :

الناظر في هذا النص يرى أن الإمام الآلوسي حكى بعض الأقوال في المراد بالعذاب الذي يستعجله المشركون وهي كالتالي :

القول الأول : المراد بالعذاب المترتب على بعثهم .
القول الثاني : المراد بالعذاب عذاب يوم بدر .
القول الثالث : المراد بالعذاب قتل جبريل المستهزئين قبل بدر .
القول الرابع : المراد به العذاب الشامل للكفرة .

وقد رجح الإمام الآلوسي في هذه المسألة أن المراد بالعذاب الشامل للكفرة معتمداً على القاعدتين الآتيتين **" يجب حمل نصوص الوحي على العموم ما لم يرد نص بالتخصيص " القول الذي تؤيده قرائن في السياق مرجح على ما خالفه " .**

وخيراً ما صنع لأن هذا هو المذهب الصواب وهو الراجح لما يأتي :

أولاً : ما استدل به الآلوسي من قول قتادة أنه لما نزل " اقترب للناس حسابهم قال ناس إن الساعة قد اقتربت فتناهوا فتناهى القوم قليلاً ثم عادوا إلى أعمالهم أعمال السوء فأنزل الله سبحانه " أتى أمر الله فلا تستعجلوه فقال أناس من أهل الضلالة هذا أمر الله قد أتى فتناهى القوم ثم عادوا إلى عكرهم عكر السوء فأنزل الله هذه الآية. [٥]

---

(١) – سورة النحل آية ١ .

(٢) – تفسير ابن أبي حاتم جـ ٦ ، ص ٢٠٠٧ رقم الأثر ١٠٧١٣ ، ونسبه إليه السيوطي في الدر المنثور جـ ٨ ، ص ١٠ والشوكاني في فتح القدير جـ ٢ ، ص ٩٧٤ وبدون نسبة كل من فتح البيان جـ ٣ ، ص ٢٩٣ ، واللباب في علوم الكتاب للإمام المفسر أبي حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي المتوفى ٨٨٠هـ تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرين جـ ١٠ ، ص ٤٤٢ ، ط دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م ، الكشاف جـ ٢ ، ص ٢٠٩ والبحر المحيط جـ ٦ ، ص ١٢٦ ، والجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ١٠ ، وغرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٨ .

(٣) – روح المعاني جـ ٧ ، ص ٢٠ .

(٤) – تفسير القرآن الكريم د / عبد الله شحاتة جـ ١٢ ، ص ٢١٧٦ .

(٥) – روح المعاني جـ ٧ ، ص ٢١ ، فتح القدير جـ ٢ ، ص ٦٧٤ .

ثانياً : قوله " ليقولن ما يحسبه " قرينة تؤيد أن المراد العذاب الشامل قال الحسن : معنى حكم الله في هذه الآية أنه لا يعذب أحداً منهم بعذاب الاستئصال وأخر ذلك إلى يوم القيامة [١] ولو كان غير ذلك لكان ما وقع لهم في بدر وفي غيرها ولما استنكروا تأخره .

ثالثاً : أنه هو العذاب الموعود بقوله سبحانه ﴿ **وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ** ﴾ وقد فسر اليوم الكبير بيوم القيامة ووصفه بالكبر لما فيه من الأهوال. [٢]

رابعاً : أن هذا القول الذي رجحه الآلوسي رجحه معه جماعة من أهل التفسير وإليك بعض أقوالهم :

قال أبو حيان " والظاهر العذاب الموعود به " [٣]

وقال أبو السعود " والظاهر أن المراد به العذاب الشامل للكفرة " [٤]

وقال الشهاب " المراد العذاب الموعود الشامل " [٥]

خامساً : أنه لو كان مما يخص بعضاً منهم وهم المستهزؤن الخمسة أو عذابهم يوم بدر لم يكن موعوداً يستعجل منه المجرمون . [٦]

وعلى هذا فما رجحه الآلوسي هو الراجح فالله تعالى يمهل الكافرين حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

---

(١) – ذكره الرازي في مفاتيح الغيب جـ ١٧ ، ص ١٥١ .

(٢) – مجمع البيان في تفسير القرآن للشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي جـ ٥ ، ص ١٨٢ ، تحقيق السيد هاشم الرسولي المحلاتي ، ط دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م ، وفتح القدير جـ ٢ ، ص ٦٧٢ .

(٣) – البحر المحيط لأبي حيان جـ ٦ ، ص ١٢٦ .

(٤) – إرشاد العقل السليم لأبي السعود جـ ٤ ، ص ١٨٩ .

(٥) – حاشية الشهاب جـ ٥ ، ص ٧٧ .

(٦) – إرشاد العقل السليم جـ ٤ ، ص ١٨٩ .

obeikandl.com

المسألة الثالثة
الضمير للمشركين

في قوله: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ (١)

قال الآلوسي رحمه الله :

الخطاب على ما روي عن الضحاك للمأمورين بدعاء من استطاعوا وضمير الجمع الغائب عائد إلى " من " أي فإن لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله تعالى إلى الإسعاد والمظاهرة على المعارضة لعلمهم بالعجز عنه فاعلموا أنما أنزل بعلم الله (٢) وجوز أن يكون الضمير في لكم للرسول ويؤيده أنه جاء في آية أخرى ﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ** ﴾ (٣) وروي ذلك عن مجاهد (٤) وكان المناسب للأمر بقل الإفراد لكنه جمع للتعظيم ، ويجوز أن يكون الضمير له ﷺ وللمؤمنين لأنهم أتباع له ﷺ في الأمر بالتحدي ، لكن لا يخفى أن الكلام على التفسير الأول موافق لما قبله لأن ضمير الجمع في الآية المتقدمة

---

(١) – سورة هود آية ١٤ .

(٢) – نسبه إلى الضحاك أبو حيان في البحر جـ ٦ ، ص ١٣١ وبدون نسبة الجامع للقرطبي جـ ٩ ،ص ١٣ ، الجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ١١٩ ، فتح البيان في مقاصد القرآن للعلامة أبي الطيب صديق بن حسن بن علي الحسيني البخاري المتوفى ١٣٠٧هـ وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين جـ ٣ ، ص ٢٩٧ ، ط دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م ، والتبيان في تفسير القرآن لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي ٣٨٥-٤٦٠ هـ جـ ٥ ، ص ٤٥٧ ، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ومفاتيح الغيب جـ ١٧ ، ص ١٥٧ ، واللباب جـ ١٠، ص ٤٥٠ ، ومجمع البيان جـ ٥ ، ص ١٨٩ ، وحاشية الشهاب جـ ٥ ، ص ٨٢ .

(٣) – سورة القصص آية ٥٠ .

(٤) – مجاهد : هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي المقريء المفسر مولى السائب بن أبي السائب ولد سنة ٢١هـ في خلافة عمر بن الخطاب روى عن ابن عباس فأكثر وأطاب وعنه أخذ القرآن والتفسير والفقه ورد أنه قال عنه أحد العلماء : ما رأيت أحداً أراد بهذا العلم وجه الله إلا عطاء وطاووس ومجاهد وتوفى سنة مائة بمكة وهو ساجد وله ثلاث وثمانون سنة . انظر : طبقات المفسرين للداودي جـ ١ ، ص ٣٠٥ ، تهذيب التهذيب جـ ١٠ ، ص ٣٨ ، ورجال مسلم لأبي بكر أحمد بن علي بن منجويه الأصبهاني جـ ٢ ، ص ٢٣٤ ، تحقيق عبد الله الليثي ، ط دار المعرفة بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ، نسبه إلى مجاهد : الطبري في جامع البيان جـ ٧ ، ص ١٦ ، والسيوطي في الدر المنثور جـ ٨ ، ص ٢٢ ، وابن أبي حاتم في مسنده جـ ٦ ، ص ٢٠١٠ ، وأبو حيان في البحر جـ ٦ ، ص ١٣١ ، والطبرسي في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ١٨٩ ، والثعالبي في الجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ١١٩ ، وابن عطية في المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ١٥٦،والقرطبي في الجامع جـ ٩ ، ص ١٣ ، وبدون نسبة في مفاتيح الغيب للرازي جـ ١٧ ، ص ١٥٧ ، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود جـ ٣ ، ص ١٩٢، واللباب جـ ١٠ ، ص ٤٥٠ ، وفتح القدير للشوكاني جـ ٣ ، ص ٦٨٠ ، ولباب التأويل في معاني التنزيل لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن المتوفى ٧٢٥هـ ، جـ ٢ ، ص ٢٢٢ ، ط دار الفكر ، بيروت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

للكفار والضمير في هذه ضمير الجمع فليكن لهم أيضاً ولأن الكفار أقرب المذكورين فرجوع الضمير إليهم أولى. (١)

المعنى الإجمالي للآية :

إذا لم يستجيبوا لكم معشر المشركين من دعوتموهم من آلهتكم بألا يحضروا هذه الموازنة ولا يستجيبوا لرغباتكم بأن يحكموا بأنه ليس مفترى فاعلموا أنه قد بطلت دعواكم بأنه صلى الله عليه وسلم قد افتراه وقامت الحجة عليكم وأنه نزل بعلم الله ومنه سبحانه وتعالى وأنه لا إله إلا هو فانتهوا عنه الشرك وبايعوا على الإسلام وكونوا مؤمنين. (٢)

دراسة النص :

نلاحظ في هذا أن الإمام الآلوسي حكى اختلاف المفسرين في عود الضمير في ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ على ثلاثة أقوال :

القول الأول : أن الضمير للكفار .

القول الثاني : أن الضمير للنبي ﷺ .

القول الثالث : أن الضمير للنبي ﷺ وللمؤمنين .

وقد رجح الآلوسي القول بعود الضمير على الكفار وهو اختيار أصاب فيه الإمام المحرّ والصواب ويدل على صوابه القاعدتان الآتيتان :

(الأصل إعادة الضمير إلى أقرب مذكور ما لم يرد دليل بخلافه)

(توحيد مرجع الضمائر في السياق الواحد أولى من تفريقها)

وهو الراجح لما يأتي :

أولاً : أن الكلام بحسبه ملتئم موافق لما قبله لأن ضمير الجمع في الآية المتقدمة للكفار والضمير في هذه الآية ضمير الجمع فليكن للكفار أيضاً ولأن الكفار أقرب المذكورين فرجوع الضمير إليهم أولى ولأن الحمل على المؤمنين يحتاج إلى تأويل العلم والإسلام بالدوام والخلوص بخلافه على هذا . (٣)

ثانياً : أن مرجع الضمير للكفار مما يشهد له في السياق قوله: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ والاستفهام مستعمل في الحث على الفعل وعدم تأخره كقوله فهل أنتم منتهون ؟ أي عن شرب الخمر وفعل الميسر والمعنى فهل تسلمون بعد تحققكم أن هذا القرآن من عند الله (٤) وفي مثل هذا الاستفهام إيجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر. (٥)

---

(١) – روح المعاني جـ ٧ ، ص ٣٢ .

(٢) – زهرة التفاسير للإمام محمد أبو زهرة ١٨٩٨-١٩٧٤م ، ١٣١٦هـ - ١٩٣٤هـ ، جـ ٧ ، ص ٣٦٨١ ، ط دار الفكر العربي – القاهرة – بدون .

(٣) – حاشية الشهاب على البيضاوي جـ ٥ ، ص ٨٢ .

(٤) – تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور جـ ١٢ ، ص ٢٢ ، ط الدار التونسية للنشر .

(٥) – الفتوحات الإلهية للدقائق الخفية لسليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل المتوفى ١٢٠٤هـ ، جـ ٢ ، ص ٣٨٥ ،ط دار إحياء الكتب العربية ، وتفسير القرآن الكريم المسمى بالسراج المنير للخطيب الشربيني جـ ٢ ، ص ٤٩ ، ط دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الثانية وتفسير البيضاوي جـ ١ ، ص ٤٥٢ .

نظيره قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١)

فهو تعالى بهذه المقالة رغبهم في أصل الإسلام وهدد على تركه بعد علمهم بالعجز وأنه منزل من عند الله .

ثالثاً : إن استناد الوحي الإلهي والتكليم الرباني إليه تعالى إستناد ضروري لا يقبل الشك حتى يستعان عليه بالدليل فما يتلقاه النبي ﷺ دلالته على كونه كلاماً من الله دلالة ضرورية غير محتاجة إلى حجة حتى يحتج عليه بعدم إجابة المشركين إلى معارضة القرآن وعجزهم عنها على أن خطاب النبي ﷺ بمثل قوله " وأنه لا إله إلا هو " وقوله " فهل أنتم مسلمون " لا يخلو عن بشاعة .

وأيضاً لا معنى لدعوة المؤمنين وهم مؤمنين بالله وحده وبكتابه إلى العلم بأنه كتاب نازل من عند الله وبأنه تعالى واحد لا شريك له . (٢) فيترجح أن الضمير للمشركين .

رابعاً : ما رجحه الآلوسي رجحه غيره من المفسرين وإليك بعض أقوالهم :

قال أبو حيان :

" والظاهر أن الضمير في " فإن لم يستجيبوا لكم " عائد على من استطعتم وفي لكم عائد على الكفار لعود الضمير على أقرب مذكور ولكون الخطاب يكون لواحد ولترتب الجواب على الشرط ترتباً حقيقياً من الأمر بالعلم ولأن يكون قوله: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ تحريضاً على تحصيل الإسلام لا انه يريد به الإخلاص " .

وقال الشوكاني : (٣)

" هذا القول قوي من جهة اتساق الضمائر وتناسبها وعدم احتياج بعضها إلى تأويل " . (٤)

وقال الإمام الرازي : (٥)

" القائلون بأن الضمير للكفار قالوا أن هذا القول أولى لأنكم احتجتم إلى أن حملتم قوله فاعلموا على الأمر بالثبات أو على إضمار القول وعلى هذا الاحتمال لا حاجة فيه

---

(١) – سورة البقرة آية ٢٤ .

(٢) – الميزان جـ ١٠ ، ص ١٦٦ .

(٣) – الشوكاني : هو محمد بن علي الشوكاني الفقيه الأصولي المفسر صاحب التصانيف من علماء اليمن تولى قضاء صنعاء وكان نابذاً للتقليد داعياً للاجتهاد توفى سنة خمسين ومائتين وألف ، انظر : الأعلام للزركلي جـ ٦ ، ص ٢٩٨ .

(٤) – فتح القدير جـ ٢ ، ص ٦٨٠ .

(٥) – الرازي : هو أبو عبد الله محمد عمر بن حسين القرشي خطيب الري المشتهر بالفخر الرازي المفسر المتكلم برع في التفسير والفقه والكلام والأصول والطب وغيرها من تصانيفه " التفسير الكبير والمحصول وغيرهما " توفى سنة ست وستمائة ، انظر: شذرات الذهب جـ ٥ ، ص ٢ وفيات الأعيان جـ ٤ ، ص ٤٨ .

إلى إضمار فكان هذا أولى وأيضاً فعود الضمير على أقرب المذكورين واجب وأقرب المذكورين في هذه الآية هو هذا الاحتمال .

وأيضاً أن الخطاب الأول كان مع الرسول وحده بقوله: ﴿ **قُلْ فَأْتُوا** ﴾ والخطاب الثاني كان مع جماعة الكفار بقوله: ﴿ **وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾ وقوله: ﴿ فَإِن **لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ** ﴾ خطاب مع الجماعة فكان حمله على هذا أولى " . (١)

وقال الطباطبائي :

" والظاهر من السياق أن الخطاب في الآية للمشركين وأنه من تمام كلام النبي ﷺ الذي أمر بقوله تعالى: ﴿ **قُلْ** ﴾ أن يلقيه إليهم " . (٢)

وبهذا نخلص إلى رجحان رأي الإمام الآلوسي من أن الخطاب في الآية للمشركين.

---

(١) – مفاتيح الغيب جـ ١٧ ، ص ١٥٧ .

(٢) – الميزان جـ ١٠ ، ص ١٦٣ .

obeikandl.com

المسألة الرابعة
فيمن نزل

قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾ (١)

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

والظاهر أن الآية في مطلق الكفرة الذين يعملون البر لا على الوجه الذي ينبغي (٢) وأخرج ابن جرير (٣) وابن أبي حاتم (٤) عن أنس رضي الله تعالى عنه (٥) أنها نزلت في اليهود والنصارى (٦) ولعل المراد كما قال ابن عطية إنهم سبب النزول فيدخلون فيها لا أنها خاصة بهم ولا يدخل فيها غيرهم . (٧)

---

(١) – سورة هود اية ١٥ .

(٢) – نسبه إلى قتادة والضحاك وابن عباس الطبري في جامع البيان جـ ٧ ، ص ١٧ ، والطبرسي في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ١٩٠ ونسبه إلى الضحاك الخازن في لباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٢٣ والشوكاني في فتح القدير جـ ٢ ، ص ٦٨ والقرطبي في الجامع جـ ٩ ، ص ١٣ ، وابن أبي حاتم في تفسيره جـ ٦ ، ص ٢٠١١ ، وصديق خان في فتح البيان جـ ٣ ، ص ٢٩٧ ونسبه إلى قتادة الثعالبي في الجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ١١٩ ، ونسبه إلى قتادة والضحاك ابن عطية في المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ١٥٦ .

(٣) – انظر : جامع البيان جـ ٧ ، ص ١٨ .

(٤) – انظر : تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم جـ ٦ ، ص ٢٠١٠ .

(٥) – أنس هو : أنس بن مالك بن النضر بن حرام النجاري راوية الإسلام أبو حمزة الأنصاري لازم النبي ﷺ وكان في خدمته دعا له النبي بكثرة المال والولد وطول العمر توفى سنة ثلاث وتسعين وقيل غير ذلك ، انظر : سير أعلام النبلاء جـ ٣ ، ص ٣٩٥ .

(٦) – نسبه إلى أنس أبو حيان في البحر جـ ٦ ، ص ١٣٢والنيسابوري في غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ١١ ، والرازي في مفاتيح الغيب جـ ١٧ ، ص ١٥٩ ، وابن عطية في المحرر لوجيز جـ ٣ ، ص ١٥٦ والزمخشري في الكشاف جـ ٢ ، ص ٢١٠ والسيوطي في الدر المنثور جـ ٨ ، ص ٢٢ ، وأبو السعود في إرشاد العقل السليم جـ ٣ ، ص ١٩٤ وابن الجوزي في زاد المسير جـ ٤ ،ص ٨٤ ونسبه إلى أنس والحسن ابن جرير في الجامع جـ ٧ ، ص ١٨ ، والخازن في لباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٢٣ .

(٧) – المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ١٥٦ .

obeikandl.com

وقال الجبائي [١] هي في الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله جعل الله تعالى حظهم من ذلك سهمهم في الغنائم [٢] وفيه أن ذلك إنما كان بعد الهجرة والآية مكية [٣] وقيل في أهل الرياء [٤] يقال لقاريء القرآن منهم أردت أن يقال : فلان قاريء فقد قيل : اذهب فليس لك عندنا شيء وهكذا لغيره من المتصدق والمقتول في الجهاد وغيرهما ممن عمل أعمال البر لا لوجه الله تعالى وربما يؤيد ذلك ما روي عن معاوية [٥] حين حدثه أبو هريرة بما تضمن ذلك فبكى وقال صدق الله ورسوله ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا** ﴾ إلى قوله سبحانه ﴿ **وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [٦] وعليه فلابد من تقييد قوله عز وجل: ﴿ **لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ** ﴾ بأن ليس لهم بسبب أعمالهم الرياءية إلا ذلك هو خلاف الظاهر والسياق يقتضي أنها في الكفرة مطلقاً وبرهم كما قلنا " . [٧]

---

(١) – الجبائي : هو شيخ المعتزلة وصاحب التصانيف أبو علي محمد بن عبد الوهاب البصري مات بالبصرة سنة ثلاث وثلاثمائة عاش ثمانين وستين سنة وكان أبو علي على بدعته متوسعاً في العلم سيال الذهن وهو الذي ذلل الكلام وسهله وأخذ عنه فن الكلام أبو الحسن الأشعري ثم خالفه ونابذه وتسنن " انظر : سير أعلام النبلاء جـ ١٤ ، ص ١٨٣ .

(٢) – نسبه إلى الجبائي الطبرسي في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ١٩٠ وبدون نسبة في الجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ١٤ ، وغرائب القرآن جـ ٤ ، ص ١١ ، لباب التأويل جـ ٢ ،ص ٢٢٣ ، البحر المحيط جـ ٦ ، ص ١٣٢ ، مفاتيح الغيب جـ ١٧ ، ص ١٥٩ ، الكشاف جـ ٢ ، ص ٢١٠ ، إرشاد العقل السليم جـ ٣ ، ص ١٩٤ .

(٣) – انظر : الإتقان للسيوطي جـ ١، ٢٦ .

(٤) – نسبه إلى مجاهد : الطبري في جامع البيان جـ ٧ ، ص ١٧ ، السيوطي في الدر المنثور جـ ٨ ، ص ٢٤، الخازن في لباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٢٣ ، أبو حيان في البحر جـ ٦ ، ص ١٣٢ والثعالبي في الجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ١١٩ ، وابن الجوزي في زاد المسير جـ ٤ ، ص ٨٤ ونسبه إلى مجاهد وميمون بن مهران القرطبي في الجامع جـ ٩ ، ص ١٤ وبدون نسبة في الكشاف جـ ٢ ، ص ٢١٠ ، وغرائب القرآن جـ ٤ ، ص ١١ .

(٥) – معاوية : هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب أبو عبد الرحمن الأموي أسلم يوم الفتح وقيل قبل ذلك ولاه عمر بن الخطاب الشام بعد أخيه يزيد فأقره عثمان مدة ولايته ثم ولي= =الخلافة توفى سنة ستين للهجرة وكانت خلافته تسعة عشر سنة ونصفاً وقيل غير ذلك ، انظر : الإصابة جـ ٩ ، ص ٢٣١ ، التهذيب جـ ٥ ، ص ١٤٧٨ .

(٦) – حديث أبو هريرة الذي تضمن أن أهل الرياء ليس لهم من عملهم شيء في الآخرة ورد في صحيح مسلم كتاب الإمارة باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار جـ ٣ ، ص ١٥١٤ حديث رقم ١٩٠٥ .

(٧) – روح المعاني جـ ٧ ، ص ٣٨ .

المعنى الإجمالي للآية :

من أراد بأعماله الوجاهة والشرف والرفعة بين الناس وكانت إرادته مقصورة على الحياة الدنيا وعلى زينتها من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة بدون رغبة في ثواب الآخرة يوصل إليه جزاء عمله في الدنيا فيلقى النجاح أو الصحة أو الغنى أو سعة الرزق أو كثرة الأولاد بحيث يلقى المكافأة على أعماله في الدنيا وحدها وليس له في الآخرة إلا العذاب في النار. (١)

دراسة النص :

نلاحظ في هذا النص أن الإمام الآلوسي حكى أقوال أهل التفسير فيمن أريد بالآية محل البحث على أربعة أقوال وهي :

القول الأول : أنها في الكفرة مطلقاً الذين يعملون البر لا على الوجه الذي ينبغي .

القول الثاني : أنها في اليهود والنصارى .

القول الثالث : أنها في الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله ﷺ لأجل الغنائم .

القول الرابع : أنها في أهل الرياء من المسلمين .

وقد رجح الإمام الآلوسي في هذه الآية أنها في مطلق الكفرة وهو اختيار سديد من الإمام مؤسس على القاعدة الآتية (**القول الذي تؤيده قرائن في السياق مرجح على ما خالفه**)

وهو الراجح لما يأتي :

أولاً : حصرهم في الكينونة في النار يقتضي بأنها في الكفار لأن السياق في الكفرة ولأن قوله: ﴿ **لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ** ﴾ لا يليق على إطلاقه إلا بهم .

وهذه حالة الكافر في الآخرة فالكافر يريد الدنيا وزينتها أما المؤمن يريد الدنيا والآخرة وإرادته الآخرة غالبة فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة .

ثانياً : قوله تعالى: ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ** ﴾ هذه الآية إشارة إلى التخليد في النار والمؤمن لا يخلد (٢) لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ (٣)

ثالثاً : عبر بكان للدلالة على استمرار إرادة الدنيا بحيث لا يكادون يريدون الآخرة أصلاً وكانت هي وجهه ومقصده لا مقصد له غيرها وهذا لا يصدر إلا عن الكافرين لأن المؤمن لا يخلو من إرادة خير الآخرة وما آمن إلا ذلك فمورد هذه الآيات ونظائرها في حال الكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة. (٤)

---

(١) – انظر : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ١٣٠٧ -- ١٣٧٦هـ جـ ٢ ، ص ٣٧٣ ، تحقيق محمد زهري النجار ، ط عالم الكتب – بيروت ، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م وتفسير القرآن الكريم د / عبد الله شحاتة جـ ٦ ، ص ٢١٨٦ .

(٢) – اللباب جـ ١٠ ، ص ٤٥٤ .

(٣) – سورة النساء آية ٤٨ .

(٤) – التحرير والتنوير جـ ١٠ ، ص ٢٣ .

روى أنس أن النبي ﷺ قال " **إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها** " (١)

خامساً : ما رجحه الآلوسي من أن الآية في مطلق الكفرة هو ما رجحه جماعة من أئمة التفسير إليك بعض أقوالهم :

قال أبو حيان :

" والحصر في كينونة النار ظاهر في أن الآية في الكفار " . (٢)

وقال الرازي :

" آخر الآية يدل على أن المراد من هذا العام الخاص وهو الكافر " . (٣)

وقال ابن عطية : (٤)

" هو عندي أرجح التأويلات بحسب تقدم ذكر الكفار فإنما قصد بهذه الآية أولئك" . (٥)

وقال أبو السعود : (٦)

" والذي يقتضيه جزالة النظم الكريم أن المراد به مطلق الكفرة " . (٧)

وقال الثعالبي :

" الأرجح أنها في الكفرة بحسب تقدم ذكر الكفار " . (٨)

---

(١) – صحيح مسلم كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا جـ ٤ ، ص ١٦٢ ، حديث رقم ٤١٨٨ .

(٢) – البحر المحيط جـ ٦ ، ص ١٣٣ .

(٣) – مفاتيح الغيب جـ ١٧ ، ص ١٥٩ .

(٤) – ابن عطية : الإمام عبد الحق بن غالب بن عبد الملك بن غالب بن تمام بن عطية الإمام الكبير قدوة المفسرين أبو محمد الغرناطي القاضي كان مولده سنة ثمانين وأربعمائة ، كان عالماً بالتفسير والأحكام والحديث والنحو وغيرهما من تصانيفه المحرر الوجيز في التفسير ، والجمع بين الصحيحين ، والجمع بين المصنفات الستة وغيرها ، وكانت وفاته في خامس= =عشر من شهر رمضان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، انظر : طبقات المفسرين للأدنوري جـ ١ ، ص ١٧٥ . وطبقات المفسرين للداودي جـ ١ ، ص ٢٦٠ .

(٥) – المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ١٥٦ .

(٦) – أبو السعود : هو الإمام أبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي التركي ولد سنة ثمان وتسعين وثمانمائة هـ قرب القسطنطينية ودرس في بلاد متعددة وتقلد القضاء والإفتاء وتوفي بالمدينة القسطنطينية في أوائل جمادى سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة ، انظر: شذرات الذهب جـ ٨،ص ٣٨٤ .

(٧) – إرشاد العقل السليم جـ ٣ ، ص ١٩٤ .

(٨) – الجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ١٢٠ .

غير أنه يمكن أن يقال :

إن هذا الوعيد يشمل أيضاً المؤمنين ويكون استحقاقهم للنار بسبب هذه الأعمال الفاسدة والأفعال الباطلة المقرونة بالرياء [١] ويدل على هذا ظواهر الأحاديث التي تبين سوء مغبة الرياء ومنها ما ثبت عن أبي هريرة مرفوعاً **" من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة "** يعني ريحها. [٢]

فالآية عامة في كل من ينوي بعمله غير الله تعالى كان معه أصل إيمان أو لم يكن[٣] فكل أحد يريد التمتع بلذات الدنيا وطيباتها والانتفاع بخيراتها وشهواتها [٤] داخل تحت هذه الآية وفي الآية قرينة تدل على القول بالعموم وهي وقوع الجملة في صورة الشرط فكل اسم وقع شرطاً عم مقتضاه [٥] بل جاء في المسودة أن الأسماء الواقعة أدوات في الشرط من أقوى صيغ العموم . [٦]

وعلى هذا فما رجحه الإمام الآلوسي في الآية من كونها في الكفرة هو الراجح .

وفي هذه الآية تنبيه للمسلمين بألا يغتروا بظاهر حسن حال الكافرين في الدنيا وألا يحسبوا أن الكفر يوجب تعجيل العذاب فأوقظوا من هذا التوهم كما قال تعالى: ﴿ **لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي البِلادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المِهَادُ** ﴾ [٧]

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ** ﴾ [٨]

وقوله: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً** ﴾ [٩]

فليس أحد يعمل حسنة إلا وفي ثوابها فإن كان مسلماً مخلصاً وفي ثوابها في الدنيا والآخرة وإن كان كافراً وفي ثوابها في الدنيا .

---

(١) – مفاتيح الغيب جـ ١٧ ، ص ١٥٩ .

(٢) – سنن أبي داود للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ٢٠٢ – ٢٧٥هـ ، كتاب العلم باب في طلب العلم لغير الله تعالى جـ ٣ ، ص ٣٢١ رقم ٣٦٦٤ ، ط دار الحديث ١٤٠٨، ١٩٨٨م .

(٣) – الجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ١٥ .

(٤) – مفاتيح الغيب جـ ١٧ ، ص ١٥٩ .

(٥) – قواعد التفسير جـ ٢ ، ص ٥٥٨ .

(٦) – المسودة في أصول الفقه لشهاب الدين أبي العباس الحنبلي الحراني الدمشقي تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ص ١٠١ – ط دار الكتب العربي – بيروت .

(٧) – سورة آل عمران .

(٨) – سورة الشورى آية ٢٠ .

(٩) – سورة الإسراء آية ١٨ ، ١٩ .

المسألة الخامسة

المراد بالخزائن رزق الله

في قوله تعالى: ﴿وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ (١)

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

" ولا أقول لكم " رداً لقولهم " وما نرى لكم " الخ كأنه يقول : عدم إتباعي وتكذيبي إن كان لنفيكم عني فضل المال والجاه فأنا لم أدعه ولم أقل لكم إن خزائن رزق الله تعالى وماله عندي (٢) حتى أنكم تنازعوني في ذلك وتنكرونه وإنما كان مني دعوى الرسالة المؤيدة بالمعجزات ، وحمل الخزائن على ما أشرنا إليه هو المعول عليه . وقال الجبائي وأبو مسلم(٣) إن المراد بها مقدورات الله تعالى أي لا أقول لكم حين أدعي النبوة عندي مقدورات الله تعالى فأفعل ما أشاء وأعطي ما أشاء وأمنع ما أشاء وليس بشيء (٤) ومثله بل أدهى وأمر قول ابن الأنباري (٥) : إن المراد بها غيوب الله تعالى وما انطوى عن الخلق .(٦)

المعنى الإجمالي للآية :

أي لا تعني النبوة والرسالة أني أملك خزائن رزق الله تعالى وأقدر على التصرف فيها وإنما أنا بشر كغيري من الناس مؤيد بالمعجزات أدعوا إلى عبادة الله بإذنه ولا أعلم من الغيب إلا ما أطلعني الله عليه ولست ملكاً من الملائكة حتى تقولوا ما نراك إلا بشراً مثلنا فإن البشرية ليست من موانع النبوة بل من مباديها . (٧)

دراسة النص :

---

(١) – سورة هود آية ٣ .

(٢) – نسبه إلى ابن جريج الطبري في جامع البيان جـ ٧ ، ص ٤١ .

(٣) – أبو مسلم : هو عبد الرحمن بن مسلم ويقال عبد الرحمن بن يسار الخرساني الأمير صاحب الدعوة وهازم جيوش الدولة الأموية والقائم بإنشاء الدولة العباسية كان قصيراً أسمراً جميلاً نقي البشرة فصيحاً بالعربية وبالفارسية وكان عالماً بالشعر قتل سنة سبع وثلاثين ومائة " انظر : سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٦ ، ص ٤٨ .

(٤) – انظر : مجمع البيان للطبرسي جـ ٥ ، ص ٢٠٠ .

(٥) – ابن الأنباري هو كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنباري ، نزل بغداد ، كان إماماً كبيراً في النحو ، صاحب علم وعبادة ، وزهد وورع ، له تصانيف كثيرة ، توفى سنة سبع وسبعين وسبعمائة . سير أعلام النبلاء جـ ٢١ ، ص ١١٣ .

(٦) – قول ابن الأنباري ، انظر : زاد المسير جـ ٤ ، ص ٩٨ ، لباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٢٨ ، فتح البيان جـ ٣ ، ص ٣٠٩ .

(٧) – التفسير المنير للدكتور وهبه الزحيلي جـ ١٢ ، ص ٥٨ .

osrkandi.com

الناظر إلى نص الإمام الآلوسي يظهر له أنه أورد الأقوال في المراد بخزائن الله في الآية على ثلاثة أقوال :

القول الأول : أن المراد بالخزائن خزائن رزق الله تعالى وماله .

القول الثاني : أن المراد بها مقدورات الله تعالى .

القول الثالث : أن المراد بها غيوب الله تعالى وما انطوى عن الخلق .

وقد رجح الآلوسي أن المراد بالخزائن خزائن رزق الله تعالى وهو اختيار رشيد يدل على صوابه القاعدة التالية :

" إدخال الكلام في معاني ما قبله وما بعده أولى من الخروج به عنهما إلا بدليل يجب التسليم له "

وهو الراجح لما يأتي :

أولاً : ليبين لهم أن النبوة أعز من أن تنال بأسباب دنيوية ودعواها بمعزل عن إدعاء المال والجاه فقد استدلوا بعدمها على كذبه بقولهم " وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين " . (١)

ثانياً : أن المراد بها خزائن رزق الله ليحصل الفرق بينها وبين قوله " ولا أعلم الغيب " وهم إنما ادعوا أن المؤمنين إنما اتبعوه في ظاهر ما يرى منهم وهم في الحقيقة غير متبعين له .

قال الإمام الخازن : (٢)

" والقول بأنها خزائن رزق الله هو الأولى ليحصل الفرق بين قوله " ولا أقول لكم عندي" وبين قوله " ولا أعلم الغيب " . (٣)

وقال صديق خان في فتح البيان مثل ذلك . (٤)

ثالثاً : أنه أراد أن يبين لهم أنه ليس عنده خزائن فهو في الأموال دونهم فالله تعالى لم يبعث رسولاً يعطيه خزائن الأرض لكن يبعثه بما هو أعز وأغلى وهو إثراء الروح والنفس بمحبة الله ورجاء ثوابه وتقوى الله تعالى وخوف عقابه . (٥)

وعلى هذا فما رجحه الآلوسي هو الراجح لأن الكلام على هذا متسق مع ما قبله وما بعده .

---

(١) – إرشاد العقل السليم لأبي السعود جـ ٣ ، ص ٢٠٣ .

(٢) – الخازن : هو علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشهير بالخازن سمي بذلك لأنه كان خازن كتب ولد سنة ثمان وسبعين وستمائة ببغداد صنف كثيراً من ذلك تفسيره المسمى لباب التأويل لمعاني التنزيل ، انظر : طبقات المفسرين للداودي جـ ١ ، ص ٤٢٦ .

(٣) – لباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٢٨ .

(٤) – فتح البيان جـ ٣ ، ص ٣٠٩ .

(٥) – زهرة التفاسير جـ ٧ ، ص ٣٧٠٢ .

المسألة السادسة
من تتمة قصة نوح عليه السلام

قوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ (١)

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

أم يقولون افتراه " قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يعني نوحاً عليه السلام(٢) أي بل أيقول قوم نوح أن نوحاً افترى ما جاء به مسنداً إلى الله عز وجل وما يقتضيه كلام ابن عباس من أن الآية من تتمة قصة نوح عليه السلام وفي شأنه هو الظاهر وعليه الجمهور وعن مقاتل أنها في شأن النبي ﷺ مع مشركي مكة (٣) أي بل أيقول مشركو مكة إفترى رسول الله خبر نوح ولا يخفى أن القول بذلك بعيد . (٤)

المعنى الإجمالي للآية :

أنكر سبحانه عليهم قولهم أن ما أوحي إلى نوح مفترى ثم أمره أن يجيب بكلام منصف أي إن كنت افتريته فعلي عقاب جرمي وإن كنت صادقاً وكذبتموني فعليكم عقاب ذلك التكذيب وأنا بريء من إجرامكم بسبب ما تنسبون إلي من الافتراء . (٥)

دراسة النص :

نلاحظ في هذا النص أن الإمام الآلوسي حكى قولين في شأن الآية محل البحث وهما :

القول الأول : أن الآية من تتمة قصة نوح عليه السلام وفي شأنه .

القول الثاني : أنها في شان النبي ﷺ مع مشركي مكة .

وقد استظهر الآلوسي قول ابن عباس وهو استظهار سديد يدل على صحته القاعدة التالية :

(إدخال الكلام في معاني ما قبله وما بعده أولى من الخروج به عنها إلا بدليل يجب التسليم له) .

---

(١) – سورة هود آية ٣٥ .

(٢) – قول ابن عباس : انظر مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٢٠٢ ، لباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٢٩ ، إرشاد العقل السليم جـ ٣ ، ص ٢٠٥ ، معالم التنزيل جـ ٢ ، ص ٣٨١ ، الجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ٢٩ ، اللباب جـ ١٠ ، ص ٤٧٩ وبدون نسبة فتح القدير جـ ٢ ، ص ٦٩٣ .

(٣) – قول مقاتل : انظر لباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٢٩ ، غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٢٠ ، فتح البيان جـ ٣ ، ص ٣١١ ، وإرشاد العقل السليم جـ ٣ ، ص ٢٠٥ ، الجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ٢٩ ، اللباب جـ ١٠ ، ص ٤٧٩ ، معالم التنزيل جـ ٢ ، ص ٣٨١ وبدون نسبة مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٢٠٢ ، وفتح القدير جـ ٢ ، ص ٦٩٣ ، حاشية الشهاب جـ ٥ ، ص ٩٦ .

(٤) – روح المعاني جـ ٧ ، ص ٧١ .

(٥) – فتح البيان جـ ٣ ، ص ٣١١ .

وهو الراجح لما يأتي :

أولاً : أنه قول ابن عباس رضي الله عنهما وجمهور العلماء يقدمون أقوال الصحابة عند الترجيح فإذا ثبت قول الصحابي يقدم على غيره عند الترجيح إذا كان في غير سبب النزول وأحوال القيامة يقول ابن كثير رحمه الله " وقول الصحابي من السنة في حكم المرفوع عند الأكثرين ولا سيما قول ابن عباس تفسيراً للقرآن فهو ترجمانه " (١)

ثانياً : من قال أنها في شأن النبي ﷺ لو صح ذلك بسند صحيح لوقف عنده (٢)

ثالثاً : أن الكلام قبلها وبعدها مع نوح عليه السلام وقومه والخطاب منهم ولهم (٣)

رابعاً : ما رجحه الآلوسي من أن الآية من تتمة قصة نوح مال إليه جماعة من أئمة التفسير وإليك أقوالهم :

قال الشوكاني :

" الأولى أنها حكاية عن نوح وما قاله لقومه لأن الكلام قبلها وبعدها مع نوح عليه السلام " . (٤)

وقال القرطبي : (٥)

" هو من محاورة نوح لقومه وهو أظهر لأنه ليس قبله ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه " . (٦)

وقال صديق خان :

" والأولى أنها حكاية عن نوح وما قاله لقومه لأن الكلام قبلها وبعدها مع نوح عليه السلام" . (٧)

---

(١) – تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ١ ، ص ٢٣٦ .

(٢) – البحر المحيط جـ ٦ ، ص ١٤٨ ، المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ١٦٧ ، الجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ١٢٤ .

(٣) – فتح القدير جـ ٢ ، ص ٦٩٣ .

(٤) – فتح القدير جـ ٢ ، ص ٦٩٣ .

(٥) – القرطبي : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن أبي فرح الأنصاري أبو عبد الله القرطبي مصنف التفسير المشهور الذي سارت به الركبان وهو كتاب من أجل الكتب وهو إمام متقن متبحر في العلم له تصانيف مفيدة تدل على إمامته وكثرة إطلاعه توفى سنة إحدى وسبعين وستمائة ، انظر : طبقات المفسرين للداودي جـ ٢ ، ص ٤٣٤ ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لمصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي جـ ١ ، ص ٣٩٠ ، ط دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م ، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للعلامة احمد بن محمد المقري التلمساني المتوفى ١٠٤١هـ ، جـ ٢ ، ص ٢١٠ ، د / إحسان عباس ، ط دار صادر – بيروت ١٣٨٨هـ .

(٦) – الجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ٢٩ .

(٧) – فتح البيان جـ ٣ ، ص ٣١٠ .

وقال الشهاب في حاشيته على البيضاوي :

" والظاهر أن هذا من تتمة قصة نوح عليه السلام وفي شأنه وعليه الجمهور ". [١]

وقال وهبة الزحيلي :

" والأظهر أن قوله أم يقولون افتراه هو من محاورة نوح لقومه " . [٢]

وقال الشيخ ناصر السعدي :

" هذا الضمير يعود إلى نوح كما كان السياق في قصته مع قومه " . [٣]

وبهذا كله يظهر صواب اختيار الآلوسي من أن الكلام من تتمة قصة نوح .

---

(١) – حاشية الشهاب جـ ٥ ، ص ٩٦ .

(٢) – التفسير المنير جـ ١٢ ، ص ٦٣ .

(٣) – تيسير الكريم الرحمن جـ ٢ ، ص ٣٨١ .

obeikandl.com

المسألة السابعة

المراد من التنور تنور الخبز

في قوله تعالى:﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ (١)

قال الآلوسي رحمه الله :

والمراد من التنور تنور الخبز عند الجمهور (٢) وعن ابن عباس وعكرمة (٣) والزهري (٤) أن التنور وجه الأرض هنا (٥) وعن قتادة أنه أشرف موضع منها أي أعلاه

---

(١) – سورة هود آية ٤٠ .

(٢) – هو قول ابن عباس ومجاهد في المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ١٧٠ ، ونسبه إلى ابن عباس والحسن ومجاهد الطبري في الجامع جـ ٧ ، ص ٥٢ ، والرازي في مفاتيح الغيب جـ ١٧ ، ص ١٨٠ ، وأبو حيان في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ١٥١ ، والقرطبي في الجامع جـ ٩ ، ص ٣٣ ، والشوكاني في فتح القدير جـ ٢ ، ص ٦٩٥ ، والنيسابوري في غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٢١ ، والطبرسي في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٢٠٩ . ، ونسبه إلى الحسن ومجاهد والشعبي ابن عادل في اللباب جـ ١٠ ، ص ٤٨٤ ، والخازن في لباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٣١ .

(٣) – عكرمة : هو العلامة الحافظ المفسر عكرمة بن عبد الله أبو عبد الله المدني البربري الأصل مولى ابن عباس وهو ثقة ثبت عالم بالتفسير لا تثبت عنه بدعة ولا كذبة توفى سنة أربع ومائة ، انظر : سير أعلام النبلاء جـ ٥ ، ص ١٢ ، طبقات المفسرين للداودي جـ ١ ، ص ٣٨٦.

(٤) – الزهري : هو محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري القرشي أحد الفقهاء والمحدثين والأعلام التابعين بالمدينة كان من أحفظ أهل زمانه وأحسنهم سياقاً لمتون الأخبار ولد سنة إحدى وخمسين للهجرة وتوفى سنة أربع وعشرين ومائة ، انظر : وفيات الأعيان جـ ٢ ، ص ٣١٨ ، ورجال مسلم جـ ٢ ، ص ٢٠٥ .

(٥) – قول ابن عباس وعكرمة والزهري في : إرشاد العقل السليم جـ ٣ ، ص ٢٠٨ ، مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٢٠٩ ، زاد المسير جـ ٤ ، ص ١٠٥ ، وقول ابن عباس وعكرمة والزهري وابن عينية في الجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ٣٣ ، وفتح القدير جـ ٢ ، ص ٦٩٥ ، وفتح البيان جـ ٣ ، ص ٣١٤ ، والبحر المحيط جـ ٦ ، ص ١٥١ ، وقول ابن عباس وعكرمة في مسند ابن أبي حاتم جـ ٦ ، ص ٢٠٢٩ ، والمحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ١٧١ ، وجامع البيان جـ ٧ ، ص ٥١ وقول عكرمة والزهري في لباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٣١ ، واللباب جـ١٠ ، ص ٤٨٤ .

وأرفعه [١] وأخرج ابن جرير [٢] وأبو الشيخ [٣] وغيرهما عن علي كرم الله وجهه[٤] أنه تنوير الصبح [٥] والظاهر أنه لم يستعمل في اللغة العجمية بهذه المعاني الأخيرة .[٦]

المعنى الإجمالي للآية :

لقد أمر الله نوحاً أن يصنع الفلك لنجاته ومن معه من المؤمنين وإغراق المشركين ولقد صنع نبي الله ومن معه الفلك حتى جاء أمر الله وهو الغرق والنجاة لمن نجا عليها وجعل الله تعالى فوران الماء من التنور علامة لواقعة الطوفان .[٧]

دراسة النص

الناظر إلى هذا النص يرى أن الإمام الآلوسي أورد الأقوال المأثورة في بيان المراد من التنور على أربعة أقوال :

---

(١) – قول قتادة في جامع البيان جـ ٧ ، ص ٥١ ، مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٢٠٩ ، الجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ٣٣ ، فتح القدير جـ ٢ ، ص ٦٩٥ ، والدر المنثور جـ ٨ ، ص ٤٨ ، فتح البيان جـ ٣ ،ص٣١٤ إرشاد العقل السليم جـ ٣ ، ص ٢٨ ، المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ١٧١ والبحر المحيط جـ ٦ ، ص ١٥١ ، وبدون نسبة في مفاتيح الغيب جـ ١٧ ، ص ١٨٠ ، اللباب جـ ١٠ ، ص ٤٨٤ ، زاد المسير جـ ٤ ، ص ١٠٥ .

(٢) – جامع البيان جـ ٧ ، ص ٥٢ .

(٣) – انظر : الدر المنثور للسيوطي جـ ٨ ، ص ٤٨ .

(٤) – علي كرم الله وجهه : هو علي بن أبي طالب يكني أبا الحسن أول من آمن بالله ورسوله من الصبيان وزوجه رسول الله في سنة اثنين من الهجرة ابنته فاطمة وفضائله عديدة لا يحيط بها كتاب بويع بالخلافة يوم قتل عثمان وقتله عبد الرحمن بن ملجم ليلة الجمعة لثلاث عشرة من رمضان ، انظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي المتوفى ٤٦٣ هـ ، تحقيق عبد المنعم البري وجمعه طاهر جـ ٣ ، ص ١٩٧ ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

(٥) – قول علي في جامع البيان جـ ٧ ، ص ٥١ ، الدر المنثور جـ ٨ ، ص ٨٤ ، مسند ابن أبي حاتم جـ ٦ ، ص ٢٠٢٨ ، الجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ٣٣ ، فتح القدير جـ ٢ ، ص ٦٩٥ ، اللباب جـ ١٠ ، ص ٤٨٤ ، غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٢١ ، مجمع البيان جـ ٥ ،ص ٢٠٩ ، زاد المسير جـ ٤ ، ص ١٠٥ ، فتح البيان جـ ٣ ، ص ٣١٤ ، إرشاد العقل السليم جـ ٣ ، ص ٢٠٨ ، مفاتيح الغيب جـ ١٧ ، ص ١٨٠ ، المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ١٧١ ، البحر المحيط جـ ٦ ، ص ١٥١ ، لباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٣١ .

(٦) – روح المعاني جـ ٧ ، ص ٧٦ .

(٧) – زهرة التفاسير جـ ٧ ، ص ٣٧٠٨ .

القول الأول : أنه تنور الخبز.
القول الثاني : أنه وجه الأرض.
القول الثالث : أنه أشرف موضع في الأرض وأعلاه .
القول الرابع : أنه تنوير الصبح .

وقد رجح الإمام الآلوسي أن المراد من التنور تنور الخبز وهو اختيار موفق يدل على صوابه القاعدتان التاليتان :

(اللفظ إذا دار بين الحقيقة والمجاز كان حمله على الحقيقة أولى)
(يجب حمل كلام الله على المعروف من كلام العرب دون الشاذ والضعيف والمنكر)

وهو الراجح لما يأتي :

أولاً : أن المعروف من كلام العرب والأغلب الأشهر من معاني التنور أنه المكان الذي يخبز فيه [١] فلذلك جاء في القرآن بهذا اللفظ حيث خوطبوا بما يعرفون .

ثانياً : أن اللفظ إذا دار بين الحقيقة والمجاز كان حمله على الحقيقة أولى ولفظ التنور حقيقة في اسم الموضع الذي يخبز فيه فوجب حمل اللفظ عليه .

ثالثاً : أكثر المفسرين على أن المراد به تنور الخبز وإليك أقوالهم :

قال الإمام الطبري : [٢]

" وأولى هذه الأقوال عندنا بتأويل التنور قول من قال هو التنور الذي يخبز فيه لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب وكلام الله لا يوجه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب إلا أن تقوم حجة على شيء منه بخلاف ذلك فيسلم لها وذلك أنه جل ثناؤه إنما خاطبهم به لإفهامهم معنى ما خاطبهم به " . [٣]

وقال أبو حيان : [٤]

---

(١)- اللسان جـ١، ص٤٥٠ ، المعجم الوجيز ٥٧٨ مادة تنور .

(٢)- الطبري : هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري " أبو جعفر " مفسر مقريء محدث مؤرخ فقيه أصولي إمام المفسرين ولد سنة أربع وعشرين ومائتين من الهجرة أصله من طبرستان تفسيره من أجل التفاسير لم يؤلف مثله لأنه جمع فيه بين الرواية والدراية قال ابن خزيمة ما اعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير " مات سنة عشر وثلاثمائة (انظر طبقات المفسرين للسيوطي ٩٥ ، تاريخ بغداد جـ ٢ ، ص ١٦٢ ، معجم المؤلفين جـ ٩،ص ١٤٩)

(٣)- جامع البيان جـ ٧ ، ص ٥٣ .

(٤)- أبو حيان : هو محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي الشهير بأبي حيان ولد سنة أربعة وخمسين وستمائة من الهجرة كان إماماً في التفسير والنحو والتصريف له وملماً بالقراءات صحيحها وشاذها من تصانيفه البحر المحيط وإتحاف الأريب بما في القرآن من الغريب توفى سنة خمس وأربعين وسبعمائة . انظر : (فوات الوفيات والذيل عليها لمحمد بن شاكر الكتبي المتوفى ٧٦٤هـ ، تحقيق د / إحسان عباس جـ ٤ ، ص ٧١ ط دار صادر بيروت بدون تاريخ ، والنجوم الزاهرة في حلى حضرة ملوك مصر والقاهرة لجمال الدين بن يوسف بن تعزي بردي الأتابكي المتوفى ٨٧٤هـ ، جـ ١٠ ، ص ١١١ ، ط مصورة عن دار الكتب المصرية ، الدرر الكامنة جـ ٥ ، ص ٧٠ ، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار للذهبي جـ ٢ ، ص ٧٢٣ ، ط مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ ، تحقيق بشار عواد معروف وآخرون .

" الظاهر من هذه الأقوال حمله على التنور الذي هو مستوقد النار وكان ذلك من أعجب الأشياء أن يفور الماء من مستوقد النيران " . (١)

وقال ابن كثير :

" فار الماء من التنانير التي هي مكان النار صارت تفور ماء وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف وهو الأظهر" . (٢)

وقال أبو السعود :

" التنور تنور الخبز وهو قول الجمهور " . (٣)

وقال الإمام الرازي :

" الأصل حمل الكلام على حقيقته ولفظ التنور حقيقة في الموضع الذي يخبز فيه فوجب حمل اللفظ عليه " . (٤)

وقال الخازن :

" التنور هو الذي يخبز فيه وهو قول أكثر المفسرين وهذا القول أصح لأن اللفظ إذا دار بين الحقيقة والمجاز كان حمله على الحقيقة أولى ولفظ التنور حقيقة في اسم الموضع الذي يخبز فيه فوجب حمل اللفظ عليه " . (٥)

وقال صاحب حاشية الشهاب:

" التنور كالفرن ما يوقد فيه النار للخبز وهو معروف " . (٦)

وبناء على هذا نخلص من أن الراجح في هذه المسألة أن التنور هو المكان الذي يخبز فيه وهذا ما رجحه الآلوسي .

---

(١)- البحر المحيط جـ ٦ ، ص ١٥١ .

(٢)- تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٣ ، ص ٥٥١ .

(٣)- إرشاد العقل السليم لأبي السعود جـ ٤ ، ص ٢٠٨ .

(٤)- مفاتيح الغيب جـ ١٧ ، ص ١٨٠ .

(٥)- لباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٣١ .

(٦)- حاشية الشهاب جـ ٥ ، ص ٩٧ .

obeikandl.com

المسألة الثامنة
لم يعلم إبراهيم أن أضيافه ملائكة

في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ (١)

قال الآلوسي رحمه الله :

أنه عليه السلام أحس بأنهم ملائكة وإليه ذهب ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقد يستدل له بقولهم " لا تخف إنا أرسلنا " فإنه كما لا يخفى على من له أدنى ذوق إنما يقال لمن عرفهم ولم يعرف فيم أرسلوا فخاف . وذهب بعضهم إلى أنه عليه السلام لم يعرف أنهم ملائكة حتى قالوا له لا تخف إنا أرسلنا وكأن سبب خوفه منهم أنهم لم يتحرموا بطعامه فظن أنهم يريدون به سوءاً إذ كانت العادة إذ ذاك كذلك والذي أميل إليه أنه عليه السلام عرفهم قبل ذلك وأن خوفه منهم لكونهم ملائكة لم يدر لأي شيء نزلوا . (٢)

المعنى الإجمالي للآية :

لقد جاءت رسل الله الملائكة لإبراهيم تبشره بالولد وقالوا له سلاماً عليك وهو ما أبطأ في أن أقدم إليهم عجلاً مشوياً وأسرع في ذلك ولما رآهم لا يأكلون منه استشعر في نفسه منهم خوفاً وقالوا له تأميناً وتطيباً لنفسه لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط . (٣)

دراسة النص :

نلاحظ في هذا النص أن الإمام الآلوسي ذكر قولين في معرفة إبراهيم أن ضيوفه ملائكة أم لا وهما :

القول الأول : أن إبراهيم عليه السلام أحس أنهم ملائكة

القول الثاني : أنه لم يعرف أنهم ملائكة .

وقد رجح الآلوسي أن إبراهيم أحس بأنهم ملائكة وعرفهم غير أن الإمام أصاب في هذا الترجيح أجراً واحداً لأن الراجح والله أعلم أنه عليه السلام لم يعرف أنهم ملائكة عملاً بالقاعدة التفسيرية التالية :

(القول الذي تؤيده قرائن في السياق مرجح على ما خالفه)

فقرائن السياق تدل على أن إبراهيم لم يعلم أنهم ملائكة إلا حين أعلموه بذلك وإنما هو الراجح لما يأتي :

أولاً : أنه عليه السلام ما كان يعلم أنهم ملائكة بل كان يعتقد فيهم أنهم من البشر وخافهم لأنهم لما امتنعوا من الأكل خاف أن يريدوا به مكروها ولم يعلم كونهم ملائكة لأمور .

---

(١)- سورة هود آية ٦٩ ، ٧٠ .

(٢)- روح المعاني جـ ٧ ، ص ١٤٢ ، وبدون نسبة في الكشاف جـ ٢ ، ص ٢٢٤ ، البحر المحيط جـ ٦ ، ص ١٨٠ ، مفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ٢١ ، غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٣٧ ، لباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٤١ ، اللباب جـ ١٠ ، ص ٥٢٢ .

(٣)- التفسير المنير جـ ١٢ ، ص ١٠٧ ، الميزان جـ ١٠ ، ص ٣٠٩ .

١ – أنه تسارع إلى إحضار الطعام ولو عرف كونهم من الملائكة لما فعل ذلك .
٢ – أنه لما رآهم ممتنعين من الأكل خافهم ولو عرف كونهم من الملائكة لما استدل بترك الأكل على حصول الشر .
٣ – أنه رآهم في أول الأمر في صورة البشر وذلك لا يدل على كونهم من الملائكة [١] وإنما أتوه على صورة الأضياف ليكونوا على صفة يحبها لأنه كان شغوفاً بالضيافة .

ثانياً : أن السياق هنا وفي سورتي الحجر والذاريات يدل على أنه عليه السلام لم يعرف أنهم ملائكة إلا حين أعلموه بذلك قال تعالى ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ** ﴾ [٢]

وفي الحجر ﴿ **وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ** ﴾ [٣]

فإبراهيم لما سلم على رسل الله الملائكة كان يظنهم ضيوفاً من الآدميين أسرع إليهم بالإتيان بالقرى وهو لحم عجل حنيذ وأنهم لما يأكلوا أوجس منهم خيفة فقالوا لا تخف وأخبروه بخبرهم . [٤]

وإنما أوجس منهم خيفة لأن من عادة العرب أنه إذا نزل بهم الضيف ولم يتناول طعامهم توقعوا منه المكروه والشر . [٥]

وقد كانت عادة الناس في ذلك الزمان إذا كان النازل بالبيت يضمر شراً لمضيفه لأن أكل طعام القرى كالعهد على السلام من الأذى [٦]

ثالثاً : إن هذا مما ذهب إليه جمع من المفسرين :

قال أبو حيان :

" والظاهر أنه لم يعرف أنهم ملائكة لمجيئهم في صورة البشر ولمسارعته إلى إحضار الطعام إليهم وإنما عرف أنهم ملائكة بقولهم " لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط " . [٧]

---

(١)- مفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ٢١ .
(٢)- سورة الذاريات ٢٤ : ٢٨ .
(٣)- سورة الحجر ٥١ : ٥٣ .
(٤)- أضواء البيان جـ ٣ ، ص ٢٠ .
(٥)- غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٣٧ .
(٦)- التحرير والتنوير جـ ١٠ ، ص ١١٧ .
(٧)- البحر المحيط جـ ٦ ، ص ١٨٠ .

وقال الخازن :

" والأقرب أن إبراهيم لم يعرف أنهم ملائكة في أول الأمر ويدل على صحة هذا أنه عليه السلام قدم إليهم الطعام ولو عرف أنهم ملائكة لما خافهم " . [١]

وقال النيسابوري :

" واحتمال أنه كان لا يعرف أنهم ملائكة أقرب بدليل إحضاره الطعام واستدلاله بترك أكلهم على توقع الشر منهم ". [٢]

وكذلك ابن عادل في اللباب [٣]

وعلى هذا فالراجح ما ذكر لقوة أدلته وترجيح المفسرين له .

---

(١)- لباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٤١ .

(٢)- غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٣٧ .

(٣)- اللباب جـ ١٠ ، ٥٢٢ .

obeikandl.com

المسألة التاسعة
وراء بمعنى خلف وبعد

في قوله تعالى: ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ (١)

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

وراء هنا بمعنى خلف وبذلك فسرها الراغب هنا (٢) وهو رواية عن ابن عباس (٣) وفي رواية أخرى عنه تفسيرها بولد الولد وهو أحد معانيها كما في الصحاح (٤) والقاموس . (٥)

---

(١)- سورة هود آية ٧١ .

(٢)- المفردات في غريب القرآن ص ٥٢٠ .

الراغب هو : الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني أبو القاسم أديب لغوي مفسر من أهل أصبهان له التفسير الكبير ومفردات القرآن لا نظير له في معناه وله الذريعة إلى أسرار الشريعة وأفانين البلاغة وغير ذلك كان في أوائل المائة الخامسة توفى سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ، انظر : سير أعلام النبلاء جـ ١٨ ، ص ١٢٠ ، طبقات المفسرين للسيوطي جـ ١، ص ١٦٨ ، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة للفيروز آبادي جـ ١ ، ص ٩١ ، تحقيق محمد المصري ، ط جمعية إحياء التراث الإسلامي ، بالكويت ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ .

(٣)- نسبه إلى ابن عباس ومقاتل وابن قتيبة أبو حيان في البحر جـ ٦ ، ص ١٨٢ ، وابن الجوزي في زاد المسير جـ ٤ ، ص ١٣١ ، ونسبه إلى ابن عباس وقتادة الواحدي في الوسيط في تفسير القرآن المجيد المتوفى ٤٦٨هـ تحقيق الشيخ عادل أحمد بن عبد الموجود وآخرون جـ ٢ ، ص ٥٨٢ ، ط دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م .

(٤)- مختار الصحاح للشيخ محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي جـ ٦ ، ص ٢٥٢٣ ، ط دار الفكر العربي .

(٥)- القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي المتوفى ٨١٧هـ ، جـ ٤ ، ص ٣٩٩ ، الناشر مؤسسة الحلبي ، القاهرة .

openkanal.com

وبذلك قال الشعبي [١] واختاره أبو عبيدة [٢] والمعول عليه تفسيره بمعنى خلف. [٣]

المعنى الإجمالي للآية :

أن سارة زوجة إبراهيم عليها السلام كانت قائمة وراء الستر تسمع كلامهم وقيل كانت قائمة في خدمة الرسل وإبراهيم جالس معهم فضحكت سروراً بزوال الخيفة التي اعترت زوجها ولأنها استأنست بأن هؤلاء سيقضون على أهل الدعارة والفساد فبشرت بأنها سيولد لها إسحاق وبشرت بيعقوب من بعد إسحاق أي بأن إسحاق يلد يعقوب فبشرت بأنها تعيش حتى ترى ولد الولد [٤]

دراسة النص :

نلاحظ في هذا النص أن الإمام الآلوسي حكى قولين للمفسرين في معنى وراء وهما ما يلي :

القول الأول : أن وراء بمعنى خلف وبعد .

القول الثاني : أن وراء بمعنى ولد الولد .

وقد رجح الإمام الآلوسي أن وراء بمعنى خلف وبعد ولعله في ذلك اعتمد على أن هذا المعنى هو المعروف في لغة العرب وهذا الترجيح تمثله القاعدة التفسيرية :

(يجب حمل كلام الله على المعروف من كلام العرب دون الشاذ والضعيف والمنكر)

---

(١)- قول الشعبي في مفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ٢٣ ، والكشاف جـ ٢ ، ص ٢٢٥ ، ونسبه إلى ابن عباس والشعبي السيوطي في الدر جـ ٨ ، ص ١٠١ ، ونسبه إلى ابن عباس والشعبي وأبو عبيدة أبو حيان في البحر جـ ٦ ، ص ١٨٢ وابن الجوزي في زاد المسير جـ ٤ ، ص ١٣١ ونسبه إلى ابن عباس ابن عطية في المحرر جـ ٣ ، ص ١٨٩ ، والطبرسي في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٢٣١ ، ونسبه إلى ابن عباس وعامر ابن أبي حاتم في تفسيره جـ ٦ ، ص ٢٠٥٦ ونسبه إلى الحسن وابن عباس والشعبي وعامر الطبري في جامع البيان جـ ٧ ، ص ٩٧ ، ونسبه إلى ابن عباس والشعبي الماوردي في النكت والعيون جـ ٢ ، ص ٤٨٥ .

(٢)- أبو عبيدة : هو الإمام العلامة أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي مولاهم البصري النحوي صاحب التصانيف ولد سنة عشرين ومائة قال يحيى بن معين ليس به بأس ومن مصنفاته مجاز القرآن ومع ذلك لم يكن بالماهر بكتاب الله ولا البصير بالفقه واختلاف أئمة الاجتهاد توفى سنة عشرة ومائتين ، انظر : سير أعلام النبلاء جـ ٩ ، ص ٤٤٥ ، الكاشف للذهبي جـ ٢ ، ص ٤٨٢ ، تحقيق محمد عوامة ، ط دار القبلة للثقافة الإسلامية ، ومؤسسة علوم القرآن ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ .

(٣)- روح المعاني جـ ٧ ، ص ١٤٨ .

(٤)- لباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٤١ ، فتح البيان حجـ ٣ ، ص ٣٣٦ .

وهو الراجح لما يأتي :

أولاً : أن وراء هنا ظرف استعمل اسماً غير ظرف بدخول من عليه كأنه قيل : ومن بعد إسحاق أو من خلف إسحاق وتسميته وراء قريبة من معنى وراء الظرف إذ هو ما يكون خلف الشيء وبعده .

قال أبو حيان هو الظاهر. (١)

ثانياً : أن في تفسيره بمعنى ولد الولد بعد وتكلف عن ظاهر اللغة فقد جاء في لسان العرب أن وراء بمعنى خلف وفي حديث معقل أنه حدث ابن زياد بحديث فقال أشيء سمعته من رسول الله أو من وراء أي ممن جاء خلفه وبعده (٢) وكذا في معجم مقاييس اللغة لابن فارس. (٣)

وقال الراغب : وراء زيد كذا لمن خلفه نحو قوله " ومن وراء إسحاق يعقوب فمن فسره بهذا أراد أن يخلفه ويكون من جهته وأما وراء بمعنى ولد الولد فاللغة تأباه " . (٤)

ثالثاً : أن هذا المعنى تشهد له آيات قرآنية في قوله ﴿ **ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ** ﴾ (٥) وقوله ﴿ **فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ**﴾ (٦)

فإن وراء تستعمل بمعنى خلف وبعد كما إذا قيل وراء زيد كذا فإنه يقال لمن خلفه (٧) فمن حمل الوراء على بعد لزم ظاهر العربية .

قال الإمام الرازي :

" وراء معناه بعد وهذا هو الوجه الظاهر وأما الوراء ولد الولد فهذا الوجه عندي شديد التعسف واللفظ كأنه ينبو عنه " . (٨)

وعلى هذا فالراجح أن وراء بمعنى خلف وبعد وهو مار حجه الآلوسي وكان صائباً في اختياره .

---

(١)- البحر المحيط جـ ٦ ، ص ١٨٢ .

(٢)- لسان العرب جـ ٦ ، ص ٤٨٢٣ .

(٣)- معجم مقاييس اللغة جـ ٦ ، ص ١٠٤ .

(٤)- المفردات للراغب ص ٥٢٠ .

(٥)- سورة الحديد آية ١٣ .

(٦)- سورة النساء آية ١٠٢ .

(٧)- تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم لسميح عاطف الزين ٩٢١ ط دار الكتاب اللبناني ، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي المتوفى ٨١٧هـ تحقيق محمد علي النجار جـ ٥ ، ص ٢٠٠ ، ط المكتبة العلمية – بيروت .

(٨)- مفاتيح الغيب للرازي جـ ١٨ ، ص ٢٣ .

المسألة العاشرة
المراد بالسجيل الطين المتحجر
في قوله تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ (١)

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

والسجيل الطين المتحجر لقوله تعالى في الآية الأخرى " حجارة من طين " (٢) والقرآن يفسر بعضه بعضاً ويتعين إرجاع بعضه لبعض في قصة واحدة وهو كما أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ومجاهد معرب – سنك كل - (٣) وقال أبو عبيدة : السجيل كالسجين الشديد من الحجارة (٤) وقيل هو من أسجله إذا أرسله أو أدر عطيته والمعنى حجارة كائنة من مثل الشيء الرسل أو مثل العطية في الإدرار وهو على هذا خارج مخرج التهكم وقيل من السجل وهو الصك ومعنى كونه من ذلك أنه مما كتب الله تعالى عليهم أن يعذبهم به وقيل أصله من سجين وهو اسم لجهنم أولواد فيها وقال أبو العالية. (٥)

وابن زيد (٦) السجيل اسم لسماء الدنيا . (٧) قال أبو حيان وهو ضعيف لوصفه بقوله سبحانه منضود (٨) ولا يخفى أن هذه المعاني كما تأبى ما قال أبو العالية وابن زيد تأبى بحسب الظاهر . (١)

---

(١)- سورة هود آية ٨٢ .

(٢)- سورة الذاريات آية ٣٣ .

(٣)- انظر الدر المنثور للسيوطي جـ ٨ ، ص ١٢٣ وهو قول ابن عباس ومجاهد والسدي وسعيد بن جبير وعكرمة في مسند ابن أبي حاتم جـ ٦ ، ص ٢٠٦٨ والبحر المحيط جـ ٦ ، ص ١٩١ وجامع البيان جـ ٧ ، ص ١٢٢ ومجمع البيان جـ ٥ ، ص ٢٣٨ والمحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ١٩٧ ، وفتح البيان جـ ٣ ، ص ٣٤٤ وزاد القرطبي قتادة والحسن في الجامع جـ ٩ ، ص ٨٢ وقول عكرمة وقتادة والحسن في مفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ٣٢ وبدون نسبة في إرشاد العقل السليم جـ ٣ ، ص ٢٣٠ ، والكشاف جـ ٢ ، ص ٢٢٨ وغرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٤٢ .

(٤)- هو قول أبو عبيدة في الجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ٨١ ، والبحر المحيط جـ ٦ ، ص ١٩١.

(٥)- أبو العالية : هو رفيع بن مهران البصري أسلم في خلافة أبي بكر ودخل عليه وصلى خلف عمر وقرأ القرآن على أبيّ وعلي وعمر ثلاث مرات كان إماماً في القرآن والتفسير والعلم والعمل روى عن علي وعمر وابن مسعود وطائفة وهو من ثقات التابعين المشهورين بالتفسير ، أجمع عليه أصحاب الكتب الستة ، مات سنة تسعين وقيل ثلاث وتسعين ، انظر : سير أعلام النبلاء جـ ٤ ، ص ٢٠٧ ، كشف الظنون جـ ١ ، ص ٤٣٠ .

(٦) – ابن زيد : هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي مولاهم المدني ، روي عن أبيه وابن المنكدر وعنه أصبغ وكتيبة ، ضعفوه قال ابن معين ليس حديثه بشيء وقال النسائي ضعيف وقال أبو حاتم ليس بقوي في الحديث كان في نفسه صالحاً وفي الحديث واهياً ، له التفسير والناسخ والمنسوخ ، أخرج له الترمذي وابن ماجة ، مات سنة اثنتين وثمانين ومائة . تهذيب التهذيب جـ ٦ ، ص ١٦١ ، و طبقات المفسرين للداودي جـ ١ ، ص ٢٧١ .

(٧)- هو قول أبي العالية وابن زيد في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ١٩١ والجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ٨١ وقول ابن زيد في الدر المنثور جـ ٨ ، ص ١٢٣ ، ومفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ٣٢ وجامع البيان جـ ٧ ، ص ١٢٢ ومجمع البيان جـ ٥ ، ص ٢٣٨ وفتح البيان جـ ٣ ، ص ٣٤٤ والمحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ١٩٧ وبدون نسبة في غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٤٢ والكشاف جـ ٢ ، ص ٢٢٨ وإرشاد العقل السليم جـ ٣ ، ص ٢٣٠ .

(٨)- البحر المحيط جـ ٦ ، ص ١٩١ .

المعنى الإجمالي للآية :

روي أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط واقتلعها ورفعها حتى سمع أهل السماء الدنيا صراخ الديكة ونباح الكلاب ثم أرسلها معكوسة وأتبعهم الحجارة من السماء روي أن الحجارة استوفت منهم من خارج مدنهم حتى قتلتهم أجمعين وكانت الحجارة التي رموا بها كالأجر المطبوخ من طين قد تحجر . (٢)

دراسة النص :

المتأمل في كلام الآلوسي يظهر له أن الإمام ذكر بعض الأقوال المأثورة في تفسير السجيل وهي كالآتي :

القول الأول : أن السجيل هو الطين المتحجر .

القول الثاني : أنه الشديد من الحجارة .

القول الثالث : أنه من السجل وهو الصك .

القول الرابع : أنه من سجين وهو اسم لجهنم أو لواد فيها .

القول الخامس : السجيل اسم لسماء الدنيا .

وقد رجح الإمام الآلوسي أن السجيل هو الطين المتحجر وهذا الرأي جدير بالتقوية والترجيح ويدل على قوته ورجحانه القاعدة التفسيرية الآتية :

(القول الذي تؤيده آيات قرآنية مقدم على ما عدم ذلك)

وهو الراجح أيضاً لما يأتي :

أولاً : أن هذا القول تؤيده آيات قرآنية أخرى ولا شك أن تفسير القرآن بالقرآن هو أولى التفاسير على الإطلاق .

والدليل على أن المراد بالسجيل الطين قوله تعالى في الذاريات في القصة بعينها ﴿ **لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ** ﴾ وخير ما يفسر به القرآن القرآن .

والدليل على قوتها وشدتها أن الله ما عذبهم بها في حالة غضبه عليهم إلا لأن النكال بها بالغ شديد (٣)

ثانياً : أنها في اللغة تعني حجارة وطين

قال ابن منظور : السجيل هو حجر من طين معرب دخيل وهو سَنْك وَكِل أي حجارة وطين وقال الأزهري : والذي عندنا والله أعلم أنه إذا كان التفسير صحيحاً فهو فارسي أعرب لأن الله تعالى قد ذكر هذه الحجارة في قصة قوم لوط فقال لنرسل عليهم حجارة من طين فقد بين للعرب ما عنى بسجيل ومن كلام الفرس ما لا يحصى مما قد أعربته العرب فلا أنكر أن يكون هذا مما أعرب " . (٤)

---

(١)- روح المعاني جـ ٧ ، ص ١٦٩ .

(٢)- المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ١٩٧ بتصرف .

(٣)- أضواء البيان للشنقيطي جـ ٣ ، ص ٣٨ .

(٤)- لسان العرب جـ ٣ ، ص ١٩٤٦ .

obeikandl.com

وقال الفيروز آبادي : [١]

" السجيل حجر وطين معرب من سَنْك وَكِل " . [٢]

وقال الراغب :

" السجيل حجر وطين مختلط أصله فارسي معرب " . [٣]

ثالثاً : كثرة القائلين به وترجيح المفسرين على أن المراد بالسجيل الطين المتحجر .

قال الطبري :

" والصواب من القول في ذلك عندنا ما قاله المفسرون وهو أنها من طين وبذلك وصفها الله في كتابه في موضع وذلك قوله تعالى ﴿ **لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ** ﴾ [٤]

وقال الثعالبي :

" ذهبت فرقة منهم ابن عباس إلى أن الحجارة التي رموا بها كانت كالآجر المطبوخ كانت من طين قد تحجر وهذا القول هو الذي عليه الجمهور " . [٥]

وقال الطباطبائي :

" والظاهر أن الأصل في جميع هذه المعاني هو التركيب الفارسي المعرب المفيد معنى الحجر والطين " . [٦]

وقال محي الدين زاده :

" ينصره ما روي عن ابن عباس أنه قال هو حجر من طين كالآجر المطبوخ " [٧]

وقال ابن عطية :

" وذهبت فرقة إلى أن الحجارة التي رموا بها كانت كالآجر المطبوخ كانت من طين قد تحجر وهو الصواب الذي عليه الجمهور " . [٨]

---

(١)- الفيروز آبادي : هو محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي الفيروز آبادي سمع من ابن القيم وغيره ومن تصانيفه القاموس المحيط في اللغة والبلغة وشرح عمدة الأحكام مات سنة سبع عشرة وثمانمائة ، انظر : بغية الوعاة جـ ١ ، ص ٢٧٣ .

(٢)- بصائر ذوي التمييز جـ ٣ ، ص ١٩٣ .

(٣)- المفردات للراغب ٢٢٤ .

(٤)- جامع البيان جـ ٧ ، ص ١٢٣ .

(٥)- الجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ١٣٣ .

(٦)- الميزان جـ ١٠ ، ص ٣٣١ .

(٧)- حاشية محي الدين شيخ زاده محمد بن مصلح الدين مصطفى القوجوي الحنفي المتوفى ٩٥١هـ على تفسير القاضي البيضاوي جـ ٤ ، ص ٦٧٨ ضبطه وصححه محمد عبد القادر شاهين ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .

(٨)- المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ١٩٨ .

obeikandl.com

وقال ابن عادل :

" ويُنصر تفسير ابن عباس أنه حجر وطين كالآجر المطبوخ " . (١)

وقال صديق خان :

" بعد أن ذكر الأقوال وأولها الطين المتحجر والأول أولى " . (٢)

وبناء على ما سبق نخلص إلى صواب اختيار الآلوسي رحمه الله .

---

(١)- اللباب : جـ ١٠ ، ص ٥٤١ .

(٢)- فتح البيان جـ ٣ ، ص ٣٤٤ .

obeikandl.com

المسألة الحادية عشرة
عموم المراد بالظالمين

في قوله تعالى :﴿ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (١)

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

" من الظالمين " من كل ظالم فإنهم بسبب ظلمهم مستحقون لها وفيه وعيد لأهل الظلم كافة وروي هذا عن الربيع (٢) وأخرج ابن جرير وغيره عن قتادة أن المراد من الظالمين ظالموا هذه الأمة (٣) وقيل المراد بالظالمين قوم لوط عليه السلام (٤) والمعنى لم تكن الحجارة لتخطئهم . (٥)

المعنى الإجمالي للآية :

يخبر تعالى متوعداً الظالمين بأن هذا العذاب وذلك الخسف قريب من كل ظالم حيث يصيبه الله تعالى على نحوما فهم لظلمهم مستحقون لها . (٦)

دراسة النص :

نلاحظ في هذا النص أن الإمام الآلوسي حكى الخلاف حول المراد بالظالمين في الآية المتقدمة على ثلاثة أقوال وهم :

القول الأول : أنها في أهل الظلم كافة .

القول الثاني : أن المراد من الظالمين ظالموا هذه الأمة .

القول الثالث : أن المراد بالظالمين قوم لوط عليه السلام .

ثم رجح القول بالعموم وقد أصاب الآلوسي في ذلك أجرين كاملين وهذا الاختيار قائم على قاعدة :

(وجوب حمل نصوص الوحي على العموم مالم يرد نص بالتخصيص)

---

(١)- سورة هود آية ٨٣ .

(٢)- الربيع : هو الربيع بن أنس بن زياد البكري الخراساني كان عالم مرو في زمانه سجن بمرو ثلاثين سنة وسمع منه ابن المبارك توفى سنة تسع وثلاثين ومائة ، انظر : سير أعلام النبلاء جـ ٦ ، ص ١٦٩ قول الربيع في الدر المنثور للسيوطي جـ ٨ ، ص ١٥٤ ، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم جـ ٦ ، ص ٢٠٧٠ .

(٣)- انظر : جامع البيان للطبري جـ ٧ ،ص ١٢٦ وهو قول قتادة في زاد المسير جـ ٤،ص ١٤٦ ، الدر المنثور جـ ٨ ، ص ١٥٤ ، مسند ابن أبي حاتم جـ ٦ ، ص ٢٠٧٠ ومجمع البيان جـ ٥ ، ص ٢٣٨ وفتح البيان جـ ٣ ، ص ٣٤٥ وقول قتادة وعكرمة في الجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ٨٣ ، لباب التأويل جـ ٣ ، ص ٢٤٧ ، اللباب جـ ١١ ، ص ٥٤٢ وبدون نسبة في الكشاف جـ ٢ ، ص ٢٢٨ .

(٤)- هو قول الفراء ، انظر : زاد المسير جـ ٤ ، ص ١٤٦ .

(٥)- روح المعاني جـ ٧ ، ص ١٧٠ .

(٦)- تفسير القرآن الكريم د / عبد الله شحاتة جـ ٦ ، ص ٢٢٤٦ .

obeikandl.com

وهو الراجح لما يأتي :

أولاً : لم يرد ما يدل على تخصيص هذا الوعيد بطائفة معينة من الظالمين دون غيرهم بل في الآية قرينة تدل على القول بالعموم وهي في التعبير بالظالمين فإنها جمع اقترن به الألف واللام والجمع إذا عرف بالألف واللام يفيد العموم بشرط ألا يكون ثمّت عهد [١] وليس ثمّة عهد هنا .

وعليه فإن اللفظة عامة تتناول الظالمين في كل الأوقات .

ثانياً : إلى القول بالعموم مال جمع من المفسرين إليك بعض أقولهم :

قال أبو حيان :

" والظاهر عموم الظالمين " . [٢]

وقال صاحب حاشية الشهاب :

" فيه وعيد لكل ظالم لاشتراكهم في سبب نزول العذاب فهي عامة " . [٣]

وقال أبو السعود :

" فيه وعيد شديد لأهل الظلم كافة ". [٤]

وقال الشنقيطي: [٥]

" أي ما تلك الحجارة التي أمطرت على قوم لوط ببعيد من الظالمين ومن الآيات الدالة على هذا الوجه قوله تعالى ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها** ﴾ [٦] فإن قوله ﴿ **وللكافرين أمثالها** ﴾ ظاهر جداً في ذلك " [٧] وعليه فإن اللفظة عامة تتناول الظالمين في كل الأوقات وهو القول المختار .

---

(١)- قواعد التفسير جـ ٢ ، ص ٥٥٢ .

(٢)- البحر المحيط جـ ٦ ، ص ١٩٢ .

(٣)- حاشية الشهاب جـ ٥ ، ص ١٢٤ .

(٤)- إرشاد العقل السليم جـ ٣ ، ص ٢٣٠ .

(٥)- الشنقيطي : هو العلامة محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي بحر العلوم اللغوي الأصولي الفقيه الأديب المفسر صاحب أضواء البيان درس في المسجد النبوي وكليتي الشريعة واللغة العربية وغيرها وتوفى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة وألف (عن ترجمة تلميذه محمد عطية سالم في خاتمة الأضواء جـ ١٠ ، ص ٢٦٧ – ٢٩٧) .

(٦)- سورة محمد آية ١٠ .

(٧)- أضواء البيان جـ ٣ ، ص ٤٠ .

المسألة الثانية عشر
الإشارة للسورة
في قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [١]

قال الآلوسي رحمه الله :

والإشارة بهذه إلى السورة كما جاء ذلك من عدة طرق عن ابن عباس وأبي موسى الأشعري [٢] وابن جبير [٣] وقتادة [٤] وقيل الإشارة إليها مع نظائرها وليس بذاك ككونها إشارة إلى دار الدنيا . [٥]

---

(١)- سورة هود آية ١٢٠ .

(٢)- أبو موسى الأشعري : هو عبد الله بن قيس بن سليم بن حرب الإمام الكبير صاحب رسول الله أبو موسى الأشعري التيمي الفقيه وهو معدود فيمن قرأ على رسول الله وقد ولي إمرة الكوفة لعمر وإمرة البصرة وغزا وجاهد مع رسول الله وحمل عنه علماً كثيراً ولم يكن في الصحابة أحد أحسن صوتاً منه مات سنة أربع وأربعين على الصحيح وهو ابن بضع وستين سنة (انظر : الإصابة جـ ٤ ، ص ٤١١ سير أعلام النبلاء جـ ٢ ، ص ٣٨٠ ، ومشاهير علماء الأمصار لمحمد بن حبان البستي جـ ١ ، ص ٣٧ ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت سنة١٩٥٩م .

(٣)- ابن جبير : هو سعيد بن جبير بن هشام الإمام الحافظ المقريء المفسر روى عن ابن عباس فأكثر وجود وكان عالماً فقيهاً ورعاً حدثت له فتنة على يد الحجاج فقتله سنة خمس وتسعين وله تسع وأربعون سنة انظر : سير أعلام النبلاء جـ ٤ ، ص ٣٢١ .

(٤)- هو قول ابن عباس وأبي موسى الأشعري وابن جبير وقتادة وأبو العالية في زاد المسير جـ ٤ ، ص ١٧٣ وزاد الطبري الربيع والحسن في جامع البيان جـ ٧ ، ص ١٩٠ وهو قول ابن عباس وابن جبير في مسند ابن أبي حاتم جـ ٦ ، ص ٢٠٩٦ وابن عباس وأبو موسى في الجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ١١٦ وابن عباس والحسن ومجاهد في الدر المنثور جـ ٨ ، ص ١٧٣ ومجمع البيان جـ ٥ ، ص ٢٦٤ وابن عباس وأبو موسى وسعيد بن جبير والحسن في فتح البيان جـ ٣ ، ١٧٩ وقول ابن عباس في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٢٢٩ ، والمحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٢١٦ ، والجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ١٤٣، والتحرير والتنوير جـ ١٠ ، ص ١٩٢ ، وبدون نسبة في فتح القدير جـ ٢ ، ص ٧٤٦ ، والكشاف جـ ٢ ، ص ٢٣٩ ، وإرشاد العقل السليم جـ ٣ ، ص ٢٤٨ ،واللباب جـ ١٠ ص ٦٠٣ .

(٥)- هو قول قتادة والحسن في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٢٢٩ ، وجامع البيان جـ ٧ ، ص ١٩٠ ، وزاد المسير جـ ٤ ، ص ١٧٣ ، والجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ١١٦ والدر المنثور جـ ٨ ، ص ١٧٤ ، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم جـ ٦ ، ص ٢٠٩٦ واللباب جـ ١٠ ، ص ٦٠٣ وقول قتادة وعكرمة في لباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٤٧ وقول الحسن في المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٢١٦ والجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ١٤٣ وقول قتادة في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٢٦٤ وفتح البيان جـ ٣ ، ص ٣٧٩ وزهرة التفاسير جـ ٧ ، ص ٣٧٧٩ وبدون نسبة في إرشاد العقل السليم جـ ٣ ، ص ٢٤٨ ، والكشاف جـ ٢ ، ص ٢٣٩ .

obeikandl.com

وإن جاء في رواية عن الحسن [١] وقيل إلى الأنباء المقتصة وهو مما لا بأس به. [٢][٣]

المعنى الإجمالي للآية :

ذكر تعالى من فائدة السورة ما يعمه صلى الله عليه وسلم وقومه المؤمنين فقال فيما يرجع إلى النبي ﷺ من فائدة نزول السورة " وجاءك في هذه الحق " ومجيء الحق فيها هو ما بين الله تعالى في ضمن القصص وقبلها وبعدها من حقائق المعارف في المبدأ والمعاد وسنته تعالى الجارية في خلقه بإرسال الرسل ونشر الدعوة ثم إسعاد المؤمنين في الدنيا والآخرة وإشقاء الظالمين . [٤]

دراسة النص :

الناظر إلى هذا النص يرى أن الإمام الآلوسي حكى أقوال المفسرين في هذه المسألة على ثلاثة أقوال :

القول الأول : أن الإشارة بهذه إلى السورة .

القول الثاني : الإشارة إليها مع نظائرها كالإشارة إلى دار الدنيا .

القول الثالث : الإشارة إلى الأنباء المقتصة .

وقد اختار الإمام الآلوسي أن الإشارة إلى السورة وهو اختيار سديد مؤيد بالقاعدة التفسيرية :

(تفسير السلف وفهمهم لنصوص الوحي حجة على من بعدهم)

وهو الراجح لما يأتي :

أولاً : أنه قول جماعة من السلف وهم إلى الحق أقرب ومن الخطأ أبعد خاصة ولم يدل دليل على رجحان أحد الأقوال الأخرى .

وفي ذلك يقول الإمام الطبري :

" وأولى الأقوال بالصواب في تأويل ذلك قول من قال وجاءك في هذه السورة الحق لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن ذلك تأويله " . [٥]

ثانياً : ما رجحه الآلوسي رجحه جمع من أهل التفسير :

---

(١)- الحسن هو : الحسن بن أبي الحسن يسار البصري ، أبو سعيد ، مولى زيد بن ثابت ، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ، كان إماماً كبير الشأن ، رفيع الذكر ، روى عن خلق كثير من الصحابة والتابعين قال قتادة : ما جالست فقيهاً قط إلا ورأيت فضل الحسن عليه ، كان عالماً فقيهاً ثقة ، مأموناً عابداً ناسكاً ، كثير العلم ، مات في رجب سنة عشر ومائة ، انظر : سير أعلام النبلاء جـ ٤ ، ص ٥٦٣ ، وتهذيب التهذيب جـ ٢ ، ص ٢٣١ وطبقات المفسرين للداودي جـ ١ ، ص ١٥٠.

(٢)- هو قول الجبائي في مجمع البيان للطبرسي جـ ٥ ، ص ٢٦٤ .

(٣)- روح المعاني جـ ٧ ، ص ٢٥١ .

(٤)- الميزان جـ ١١ ، ص ٧٣ .

(٥)- جامع البيان جـ ٧ ، ص ١٩١ .

قال ابن عطية :

" قال ابن عباس : إلى السورة وهذا قول الجمهور " [١]

وقال الثعالبي :

" أكثر المفسرين على أن الإشارة إلى السورة لأنها اشتملت على قصص مفصل لبعض الأنبياء " . [٢]

وقال الخازن :

" اختلفوا في هذا الضمير إلى ماذا يعود فقيل معناه وجاءك في هذه الدنيا الحق وفيه بعد لأنه لم يجر للدنيا ذكر حتى يعود الضمير إليها وقيل في هذه السورة وهو الأقرب وهو قول الأكثرين " . [٣]

وقال ابن عادل :

" قال الأكثرون في هذه السورة " . [٤]

وقال أبو حيان :

" وقال ابن عباس الإشارة إلى السورة وهذا قول الجمهور " . [٥]

وقال الرازي في تضعيف الإشارة إلى الدنيا :

" وهذا بعيد غير لائق بهذا الموضع " . [٦]

وبهذا نخلص إلى صحة اختيار الآلوسي في هذا الترجيح .

---

(١)- المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٢١٦ .

(٢)- الجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ١٤٣ .

(٣)- لباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٥٩ .

(٤)- اللباب جـ ١٠ ، ص ٦٠٣ .

(٥)- البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٢٢٩ .

(٦)- مفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ٦٤ .

obeikandl.com

المسألة الثالثة عشرة
مكية سورة يوسف

قال الآلوسي رحمه الله :

سورة يوسف مكية كلها على المعتمد وروي عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا : إلا ثلاث آيات من أولها واستثنى بعضهم رابعة [١] وكل ذلك واهٍ جداً لا يلتفت إليه وما اعتمدناه كغيرنا هو الثابت عن الحبر وقد أخرجه النحاس وأبو الشيخ [٢] وابن مردويه عنه وأخرجه الأخير عن ابن الزبير [٣] وهو الذي يقتضيه ما أخرجه الحاكم وصححه عن رفاعة بن رافع من حديث طويل يحكي فيه قدوم رافع مكة وإسلامه . [٤][٥]

دراسة النص :

نلاحظ في هذا النص أن الإمام الآلوسي أورد قولين في مكية سورة يوسف وهما :

القول الأول : أنها كلها مكية .

القول الثاني : أنها مكية إلا ثلاث آيات من أولها .

وقد اختار الإمام أن السورة كلها مكية وهو اختيار رشيد يدل على صحته القاعدة الآتية :

(إذا ثبت تاريخ نزول السورة فهو مرجح لما وافقه من أوجه التفسير)

---

(١)- هو قول ابن عباس وقتادة في الجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ١١٨ ، فتح القدير جـ ٣ ، ص ٥ ، فتح البيان جـ ٣ ، ص ٣٨٣ ، البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٢٣٤ ، والنكت والعيون جـ ٣ ، ص ٥ ونسبه إلى ابن عباس مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٢٦٦ وبدون نسبة التحرير والتنوير جـ١٠ ، ص ١٩٦ .

(٢)- أبو الشيخ : هو حافظ أصبهان ومسند زمانه الإمام أبو محمد عبد الله بن جعفر بن حيان الأصبهاني صاحب المصنفات ولد سنة أربع وسبعين ومائتين كان خيراً صالحاً حافظاً ويعرف بأبي الشيخ قال ابن مردويه ثقة مأمون مات في المحرم سنة تسع وستين وثلاثمائة انظر : طبقات الحفاظ للسيوطي جـ ١ ، ص ٣٨٢ ، سير أعلام النبلاء جـ ١٦ ،ص ٢٧٦ .

(٣)- ذكره السيوطي في الدر المنثور جـ ٨ ، ص ١٧٥ .

ابن الزبير : هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن عبد العزى القرشي أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ، ولد عام الهجرة ، وحفظ عن النبي ﷺ وهو صغير وحدث عنه بجملة من الحديث وعن أبيه وعن أبي بكر وعمر وعثمان وخالته عائشة وهو أحد العبادلة وأحد الشجعان من الصحابة ، وهو أول مولود للمهاجرين بعد الهجرة ، وكان صواماً قواماً طويل الصلاة ، قتل ابن الزبير في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين من الهجرة . الإصابة جـ ٤ ، ص ٦٩ و أسد الغابة جـ ٣ ، ص ١٣٦ .

(٤)- مستدرك الحاكم جـ ٤ ، ص ١٤٩ .

(٥)- روح المعاني جـ ٧ ، ص ٢٥٥ .

وهو الراجح لما يأتي :

أولاً : ما أخرجه الحاكم وصححه في مستدركه في قصة إسلام رفاعة بن رافع أنه خرج هو وابن خالته معاذ بن عفراء [١] حتى قدماً مكة فلما هبطا من الثنية رأيا رجلاً تحت شجرة قال وهذا قبل خروج الستة من الأنصار ثم ساق الحديث إلى أن قال فجئت وآمنت وعلمنا رسول الله سورة يوسف و ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ﴾ قال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . [٢]

ثانياً : قال السيوطي في الإتقان : [٣]

" سورة يوسف كلها مكية ومن استثنى منها ثلاث آيات فقوله واه جداً " [٤] لأن السورة كلها قصة واحدة فهي تتلى كلها متوالية حلقاتها ومشاهدها من بدئها إلى نهايتها ومن العجائب أن يذكر هذا الاستثناء الذي ذكروه .

قال الشيخ أبو زهرة :

" قالوا إن أربع فيها مدنية ولا نرى فيها ما يدل معناها على أنها مدنية " . [٥]

ثالثاً : ما ذكره الإمام الزركشي [٦] في البرهان قال :

" أن أول سورة حملت من مكة إلى المدينة سورة يوسف انطلق بها عوف بن عفراء في الثمانية الذين قدموا على رسول الله ﷺ مكة فعرض عليهم الإسلام فأسلموا قرأها على أهل المدينة في بني زريق " . [٧]

رابعاً : هذه السورة نزلت في فترة هي من أحرج الفترات وأشقها في تاريخ الدعوة بمكة بعد موت أبي طالب وخديجة في عام واحد فكان مقصود هذه السورة ونزولها

---

(١) – معاذ بن عفراء : هو معاذ بن الحرث بن رفاعة بن مالك النجاري الأنصاري المعروف بابن عفراء وهي أمه عرف بها ، شهد العقبة الأولى مع الستة الذين هم أول من لقى النبي من الأوس والخزرج ، وشهد بدراً وما بعدها ، ويقال إنه جرح يوم بدر ومات من جراحته وقيل عاش إلى زمن عثمان وقيل إلى زمن علي . الإصابة جـ ٦ ، ص ١٠٧ ، و تهذيب التهذيب جـ ١٠ ، ص ١٧٠ .

(٢)- مستدرك الحاكم جـ ٤ ، ص ١٤٩ .

(٣)- السيوطي : هو جلال الدين عبد الرحمن بن بكر بن محمد السيوطي الشافعي صاحب المؤلفات الفائقة ولد سنة تسع وأربعين وثمانمائة وختم القرآن العظيم وله من العمر دون ثمان سنين ، وبلغت شيوخه أحداً وخمسين نفساً كما ذكر تلميذه الداودي واستقصى مؤلفاته فزادت على خمسمائة مؤلف ، كان رحمة الله آية في التأليف مات سنة إحدى عشرة وتسعمائة (انظر شذرات الذهب جـ ٨ ، ص ١٥) .

(٤)- الإتقان جـ ١ ، ص ٤٠.

(٥)- زهرة التفاسير جـ ٧ ، ص ٣٧٨١ .

(٦)- الزركشي : هو محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي بدر الدين صاحب التصانيف كان فقيهاً أصولياً أديباً له البرهان في علوم القرآن والبحر المحيط في أصول الفقه وغيرها توفى سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، انظر : شذرات الذهب جـ٦ ، ص ٣٣٥ .

(٧)- البرهان جـ ١ ، ص ٢٦٠ .

تسلية نبينا محمد ﷺ بعد ما مر عليه من الكرب والشدة وتأسيه بمن مضى من إخوانه المرسلين فيما يلقى في حياته من أقاربه الكافرين وقد وقع ليوسف من أقرب الناس إليه ومن غيرهم ومن الغربة وشتات الشمل ثم كانت العافية فيه على أتم الوجوه لما تذرع به من الصبر على شديد البلاء والتفويض لأمر الله مثلما وقع لنبينا محمد ﷺ [١]

قال الشيخ الطاهر بن عاشور: [٢]

" هي مكية على القول الذي لا ينبغي إلا الالتفات إليه " . [٣]

وعلى هذا فالقول المختار في الآية هو ما اختاره الآلوسي ومال إليه من المفسرين ابن الجوزي [٤] والقرطبي [٥] وابن عطية [٦] وصديق خان [٧] والشوكاني [٨] .

---

(١)- نظم الدر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين أبي الحسن بن عمر البقاعي المتوفى ٨٨٥هـ ، جـ ٤ ، ص ٤ ، ط دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م .

(٢)- الطاهر بن عاشور : هو محمد بن الطاهر بن محمد بن إبراهيم شيخ جامع الزيتونة وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة له مصنفات مطبوعة من أشهرها التحرير والتنوير في التفسير، انظر : الأعلام للزركلي جـ ٦ ، ص ١٧٤ .

(٣)- التحرير والتنوير جـ ١٠ ، ص ١٩٧ .

(٤) – زاد المسير جـ ٤ ، ص ١٧٦ .

(٥) – الجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ١١٨ .

(٦) – المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٢١٨ .

(٧) – فتح البيان جـ ٣ ، ص ٣٨٣ .

(٨) – فتح القدير جـ ٣ ، ص ٥ .

obeikandl.com

المسألة الرابعة عشر
المراد بالصلاح الصلاح الديني

في قوله تعالى: ﴿ اقْتُلوا يُوسُفَ أو اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ ﴾ (١)

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

" قوماً صالحين " بالتوبة والتنصل إلى الله تعالى عما جئتم به من الذنب كما روي عن الكلبي (٢) وإليه ذهب الجمهور فالمراد بالصلاح الصلاح الديني بينهم وبين الله تعالى (٣) ويحتمل أن المراد ذلك لكن بينهم وبين أبيهم بالعذر (٤) ويحتمل أن يراد الصلاح الدنيوي (٥) أي صالحين في أمر دنياكم فإنه ينتظم لكم بعده بخلو وجه أبيكم . (٦)

المعنى الإجمالي للآية :

قال إخوة يوسف بعضهم لبعض اقتلوا يوسف أو اطرحوه في أرض من الأرض يخل لكم وجه أبيكم من شغله بيوسف فإنه قد شغله عنا وصرف وجهه عنا إليه ويكونون بتوبتهم من قتله من بعد هلاك يوسف قوماً صالحين يعنون أنهم يتوبون من قتلهم وذنبهم . (٧)

دراسة النص :

---

(١)- سورة يوسف آية ٩ .

(٢)- الكلبي : هو محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن عبد الحارث أبو النضر الكوفي النسابة المفسر من عبد ود ، اتهم بالكذب وقال أبو حاتم : الناس مجمعون على ترك حديثه ومع ذلك هو معروف بالتفسير وليس لأحد أطول من تفسيره وحدث عنه ثقات من الناس ورضوه في التفسير مات بالكوفة سنة ست وأربعين ومائة ، انظر : تهذيب التهذيب جـ ٥ ، ص ١١٧.

(٣)- هو قول الكلبي في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٢٤٣ ونسبه إلى ابن عباس ابن الجوزي في زاد المسير جـ ٤ ، ص ١٨٤ ونسبه إلى السدي ابن جرير الطبري في جامع البيان جـ ٧ ، ص ٢٠٢ وبدون نسبة في الجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ١٣١ ، وإرشاد العقل السليم جـ٣ ص ٢٥٦.

(٤)- هو قول مقاتل في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٢٤٣ ، وزاد المسير جـ ٤ ، ص ١٨٤ ، ولباب التأويل جـ ٢ ،ص ٢٦٥ وقول مقاتل والسدي في المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٢٢٢ وبدون نسبة في فتح القدير جـ ٣ ، ص ١٢ ، والكشاف جـ ٢ ، ص ٢٤٤ ، والجامع للقرطبي جـ ٩ ص ١٣١ ، وإرشاد العقل السليم جـ ٣ ، ص ٢٥٦ .

(٥)- هو قول الحسن في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٢٧٤ .

(٦)- روح المعاني جـ ٧ ، ص ٢٨٧ .

(٧)- جامع البيان جـ ٧ ، ص ٢٠٢ .

نلاحظ في هذا النص أن الإمام الآلوسي ذكر قولي المفسرين في المراد بالصلاح في الآية وهما :

القول الأول : المراد بالصلاح الصلاح الديني .

القول الثاني : المراد بالصلاح الصلاح الدنيوي .

وقد رجح الإمام قول الجمهور معتمداً في ترجيحه على القاعدة التفسيرية :

(تفسير السلف وفهمهم لنصوص الوحي حجة على من بعدهم)

وهو الراجح لما يأتي :

أولاً : أنهم لما علموا أن الذي عزموا عليه من الذنوب والكبائر قالوا نتوب إلى الله من هذا الفعل ونكون من الصالحين في المستقبل . (١)

فهم كانوا يحترمون أمر الدين ويقدسونه لكن غلبهم الحسد وسولت لهم أنفسهم اقتراف الذنب وارتكاب المظلمة .

ثانياً : ما رجحه الآلوسي هو ما رجحه غيره من المفسرين إليك بعض أقوالهم:

قال أبي حيان:

" صلاحهم بالتوبة والتنصل من هذا الفعل وهذا أظهر " . (٢)

وقال ابن عطية :

" قال الجمهور صالحين بالتوبة وهذا هو الأظهر من اللفظ وحالهم أيضاً تعطيه لأنهم مؤمنون بثوا على عظيمة وعللوا أنفسهم بالتوبة " . (٣)

ولا مانع من أن يراد أيضاً الصلاح الدنيوي بصلاح حالهم من حيث سعادة الحياة الدنيا وانتظام الأمور فيها وصلاح عيشهم مع أبيهم ويخلص لهم وجه أبيهم ومحبته لهم وتصفوا وتدوم .

---

(١)- لباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٦٥ .

(٢)- البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٢٤٣ .

(٣)- المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٢٢٢ .

obeikandl.com

المسألة الخامسة عشرة
عود الضمير على الوارد وأصحابه

في قوله تعالى: ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [١]

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

﴿ وَأَسَرُّوهُ ﴾ أي أخفاه الوارد وأصحابه عن بقية الرفقة حتى لا تراه فتطمع فيه [٢] وقيل : الضمير لإخوة يوسف وذلك أن بعضهم رجع ليتحقق أمره فرآه عند السيارة فأخبر إخوته فجاءوا إليهم فقالوا هذا غلام أبق لنا فاشتروه منا فاشتروه وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه وروي كون الضمير لإخوة يوسف عن ابن عباس رضي الله عنهما [٣] ولا يخفى أن الظاهر ما أشير إليه أولاً . [٤]

المعنى الإجمالي للآية :

بعد أن ألقي يوسف في الجب جاءت مارة إلى مصر ونزلوا قريباً من هذه البئر للإستراحة وشرب الماء والتزود به فأرسلوا واردهم فأخذ دلوه وألقاها في الجب ثم لما أخرجها صاح بقوله " يا بشرى هذا غلام وأخفوه بضاعة يقصد بها البيع والتجارة . [٥]

دراسة النص :

الناظر إلى هذا النص يرى أن الإمام الآلوسي أورد قولين في عود الضمير في وأسروه وهما ما يلي :

القول الأول : أن الضمير للوارد وأصحابه أخفوه عن بقية الرفقة .

---

(١)- سورة يوسف آية ١٩ .

(٢)- الضمير للوارد هو قول ابن عباس ومجاهد في زاد المسير ، جـ ٤ ، ص ١٩٥ ، وقول مجاهد في المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٢٢٩ والجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ١٥٤ وفتح البيان جـ ٣ ، ص ٣٩٦ ، والجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ١٤٨ ، والدر المنثور جـ ٨ ، ص ٢١١ وقول مجاهد والسدي في جامع البيان جـ ٧ ، ص ٢٢١ مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٢٨٤.

(٣)- قول ابن عباس في زاد المسير جـ ٤ ، ص ١٩٥ ، جامع البيان جـ ٧ ، ص ٢٢١ ، الدر المنثور جـ ٨ ، ص ٢١١ ، الكشاف جـ ٢ ، ص ٢٤٧ ، الجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ١٥٤ ، البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٢٥٢ ، المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٢٢٩ ، غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٧٢ ، مفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ٨٥ ، اللباب جـ ١١ ، ص ٤٩ ، مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٢٨٤ ، فتح البيان جـ ٣ ، ص ٣٩٦ ، وحاشية الشهاب جـ ٥ ، ص ١٦٤ ، التفسير المنير جـ ١٠ ، ص ٢٣٠ ، وبدون نسبة في فتح القدير جـ ٣ ، ص ١٩ ، وإرشاد العقل السليم جـ ٣ ، ص ٢٦١ .

(٤)- روح المعاني جـ ٧ ، ص ٣٠٦ . .

(٥)- تفسير القرآن الكريم د / عبد الله شحاتة جـ ٦ ، ص ٢٣٠٧ ، الميزان جـ ١١ ، ص ١١ .

obeikandi.com

القول الثاني : أن الضمير لإخوة يوسف .

وقد استظهر الإمام القول بأن الضمير للوارد وأصحابه وما استظهره هو عين الصواب ويدل على صوابه القاعدة الآتية :

(توحيد مرجع الضمائر في السياق الواحد أولى من تفريقها)

وهو الراجح لما يأتي :

أولاً : قوله بضاعة يرجح أنه الوارد وأصحابه لأنهم أرادوا جعله متاعاً للتجارة وهذا إنما يليق بالوارد لا بإخوة يوسف .

قال الزجاج: [١]

" بضاعة منصوب على الحالة كأنه قال وأسروه جاعليه بضاعة " . [٢]

والبضاعة قطعة من المال تعد للتجارة من بضعت أي قطعت [٣]

ثانياً : أنهم أخفوه خشية المشاركة من الرفقة أما الأخوة فلم يكن لديهم دافع للإسرار بل كانوا يريدون الخلاص منه ولو بأزهد الوسائل وربما لم يظهروا أنفسهم للرفقة خشية افتضاح أمرهم فالدافع لدى الوارد أقوى .

ثالثاً : أكثر المفسرين على أن الضمير للوارد وأصحابه أخفوه عن بقية الرفقة خشية المشاركة وإليك بعض أقوالهم :

قال الإمام الطبري :

" وأولى هذه الأقوال بالصواب قول من قال " وأسر وارد القوم المدلي دلوه ومن معه من أصحابه من رفقته السيارة أمر يوسف أنهم اشتروه خيفة منهم أن يستشركوه وذلك أنه عقيب الخبر عنه فلأن يكون ما وليه من الخبر خبراً عنه أشبه من أن يكون خبراً عمن هو بالخبر عنه غير متصل " . [٤]

وقال الزمخشري : [٥]

" الضمير للوارد وأصحابه أخفوه من الرفقة " . [١]

---

(١)- الزجاج : هو إبراهيم بن محمد بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج البغدادي كان يخرط الزجاج ثم مال إلى النحو من تصانيفه معاني القرآن وكتاب العروض والنوادر وغيرها أخذ عنه العربية أبو علي الفارسي مات سنة إحدى عشرة وثلاثمائة ، انظر : سير أعلام النبلاء جـ ١٤ ، ص ٣٦٠ .

(٢)- معاني القرآن وإعرابه للزجاج جـ ٣ ، ص ٩٨ تحقيق عبد الجليل عبده شلبي ، ط عالم الكتب، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

(٣)- المفردات للراغب ص ٦٠ .

(٤)- جامع البيان جـ ٧ ، ص ٢٢١ .

(٥)- الزمخشري : هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الزمخشري أبو القاسم جار الله كان واسع العلم غاية في الذكاء ولد سنة سبع وتسعين وأربعمائة له مصنفات عدة منها الكشاف في التفسير المفصل في النحو وغيرها توفى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، انظر : بغية الوعاة جـ ٢ ، ص ١٨٠ ، طبقات المفسرين للداودي جـ ٢ ، ص ٣١٤ .

وقال الرازي :

" الضمير عائد على الوارد وأصحابه وهو الأولى لأن قوله " وأسروه بضاعة " يدل على أن المراد أسروه حال ما حكمو بأنه بضاعة وذلك إنما يليق بالوارد لا بإخوة يوسف " . (٢)

وقال ابن عطية :

" ظاهر الآيات أنه لوارد الماء " . (٣)

وقال النيسابوري :

" الضمير للوارد وأصحابه بدليل قوله بضاعة " . (٤)

وقال الخازن :

" والضمير لمالك بن ذعر لأنه هو الذي أسره بضاعة وأصحابه وهذا القول أصح " . (٥)

وقال الطاهر بن عاشور:

" الضمير للسيارة لا محالة " . (٦)

وقال أبو حيان :

" الظاهر أن الضمير للسيارة التي الوارد منهم " . (٧)

رابعاً : أن ضمائر الجمع في الآية للسيارة فوجب أن يعود هذا الضمير أيضاً عليهم حذراً من انتشار الضمائر وتفريقها .

وعليه فإن القول الراجح في الآية هو ما اختاره الآلوسي وإليه مال الشوكاني (٨) وصديق خان (٩) وابن عادل (١٠) وأبو السعود (١١) .

---

(١)- الكشاف جـ ٢ ، ص ٢٤٧ .

(٢)- مفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ٨٦ .

(٣)- المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٢٢٩ .

(٤)- غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٧٢ .

(٥)- لباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٧٠ .

(٦)- التحرير والتنوير جـ ١٠ ، ص ٢٤٣ .

(٧)- البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٢٥٢ .

(٨) – فتح القدير جـ ٣ ، ص ١٩ .

(٩) – فتح البيان جـ ٣ ، ص ٣١٦ .

(١٠) – اللباب جـ ١١ ، ص ٤٩ .

(١١) – إرشاد العقل السليم جـ ٣ ، ص ٢٦١ .

obeikandl.com

المسألة السادسة عشرة
المراد بتأويل الأحاديث تعبير الرؤيا

في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [١]

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

" ولنعلمه من تأويل الأحاديث " أي بعض تعبير الرؤيا التي عمدتها رؤيا الملك وصاحبي السجن وروي هذا المعنى عن مجاهد [٢] وهو الظاهر كما يرشد إليه قوله عليه السلام " ذلك مما علمني ربي " [٣] ومنهم من ذهب إلى أن المراد بتعليم الأحاديث تفهيم غوامض أسرار الكتب الإلهية ودقائق سنن الأنبياء عليهم السلام . [٤][٥]

المعنى الإجمالي للآية :

وقال الذي اشترى يوسف من بائعه بمصر لامرأته إجعلي منزله ومقامه عندنا كريماً حسناً وتفقديه بالإحسان وتعهديه بحسن الملكة لعله إذا تدرب وراض الأمور وعرف مجاريها نستعين به على بعض ما نحن بصده أو نتخذه ولداً وكما أنعمنا على يوسف بالسلامة من الجب مكنا له في قلب العزيز حتى توصل بذلك إلى أن صار متمكناً من الأمر والنهي في أرض مصر ولنعلمه تعبير بعض المنامات التي عمدتها رؤيا الملك وصاحبي السجن . [٦]

دراسة النص :

---

(١)- سورة يوسف آية ٢١ .

(٢)- قول مجاهد في الدر المنثور جـ ٨ ، ص ٢١٧ ، والمحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٢٣١ ، والبحر المحيط جـ ٦، ص ٢٥٥ وفتح البيان جـ ٣ ، ص ٣٨٧ وفتح القدير جـ ٣ ، ص ١٠ ، والجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ١٤٩ ، والنكت والعيون جـ ٣ ، ص ٨ وتفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٠ ، ومسند ابن أبي حاتم جـ ٧ ، ص ٢١١٨ وقول مجاهد والسدي في جامع البيان جـ ٧ ص ٢٣٠ ، وقتادة مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٢٧١ وابن عباس ومجاهد وقتادة زاد المسير جـ ٤ ، ص ١٨١ وقول قتادة ومجاهد في التبيان للطوسي جـ ٦ ، ص ٩٨ .

(٣)- سورة يوسف آية ٣٧ .

(٤)- هو قول الحسن والجبائي في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٢٧١ ، والزجاج والجبائي في التبيان جـ ٦ ، ص ٩٨ ، والزجاج في لباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٦٣ وبدون نسبة البغوي في معالم التنزيل جـ ٢ ، ص ٤١٧ والمحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٢٣١ وفتح البيان جـ ٣ ، ص ٣٨٧ والجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ١٤٥ ومفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ٧٢ .

(٥)- روح المعاني جـ ٧ ، ص ٣١٢ .

(٦)- انظر : مفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ٨٨ ، البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٥٥٥ والكشاف جـ ٢، ص ٢٤٨ .

الملاحظ في هذا النص أن الإمام الآلوسي حكى قولين في المراد بتأويل الأحاديث وهما ما يأتي :

القول الأول : المراد بتأويل الأحاديث تعبير الرؤيا .

القول الثاني : المراد بها تفهيم غوامض أسرار الكتب الإلهية وسنن الأنبياء عليهم السلام .

وقد رجح الإمام القول بأنها تعبير الرؤيا وهو اختيار سديد يدل على صوابه القاعدة الآتية :

(القول الذي تؤيده آيات قرآنية مقدم على ما عدم ذلك)

وهو الراجح لما يأتي :

أولاً : بشارة يعقوب لابنه يوسف بمعرفة تأويل الرؤيا وتفسير الأحلام كما جاء في قوله ﴿ **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ**﴾ [١]

فكان تأويله لرؤيا السجينين سبيلاً إلى تأويل رؤيا الملك ثم تقدير الملك له وتوليته الوزارة وتوفيقه لأن يكون وزيراً ناجحاً ثم تيسير حضور إخوته إليه من مصر وسجودهم له سجود تعظيم وتحقيق رؤياه وإنعام الله عليه وعلى والديه فكان ذلك تصديقاً لقول يعقوب ويعلمك من تأويل الأحاديث .

ثانياً : أن الله تعالى أعلم نبيه يوسف عليه السلام من تأويل الأحاديث وصرح بذلك أيضاً في قوله: ﴿ **رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ** ﴾ . [٢]

فكان يوسف أعبر الناس للرؤيا وأصحهم عبارة لها

ثالثاً : يؤيد ذلك أيضاً الآيات التي دل على خبرته بتأويل الرؤيا كقوله: ﴿ **يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ**﴾ [٣] وقوله: ﴿ **قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ** ﴾ [٤]

والذي أراه والله أعلم أنه لا مانع من إرادة الاثنين معاً تأويل الرؤيا وعلوم كتب الله وسنن الأنبياء عليهم السلام .

---

(١)- سورة يوسف آية ٦ .

(٢)- سورة يوسف آية ١٠١ .

(٣)- سورة يوسف آية ٤١ .

(٤)- سورة يوسف آية ٤٧ .

المسألة السابعة عشرة
المراد بالقطع الجرح

في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً ﴾ (١)

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ أي جرحنها بما في أيديهن من السكاكين لفرط دهشتهن وخروج حركات جوارحهن عن منهاج الاختيار حتى لم يعلمن بما عملن ولم يشعرن بمألم ما نالهن ، وهذا كما تقول كنت أقطع اللحم فقطعت يدي (٢) وفي الكشف إنه معنى مجازي على الأصح وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد أنه فسر التقطيع بالإبانة (٣) والمعنى الأول أسرع تبادراً إلى الذهن . (٤)

المعنى الإجمالي للآية :

لما سمعت امرأة العزيز بحديث النسوة عنها قابلت ذلك كله بمكرٍ فقد عملت وليمة ودعت إليها نساء الطبقة الراقية وصنعت لهن طعاماً فيه اللحوم والفاكهة وغير ذلك مما يحتاج إلى السكاكين ووزعت على كل امرأة سكيناً لتقطيع الطعام وأمرت يوسف أن يخرج على النسوة فلما خرج عليهن أعظمنه ودهشن وراعهن حسنه حتى اضطربت أيديهن فوقع القطع عليها وجرحنها وهن في شغل عن ذلك بما دهمهن مما تطيش عنده الأحلام وتزول به العقول وقلن ما هذا بشراً ما هذا إلا ملك كريم . (٥)

دراسة النص :

---

(١)- سورة يوسف آية ٣١ .

(٢)- نسبه إلى ابن عباس ابن حاتم في مسنده جـ ٧ ، ص ٢١٣٦ ، وإلى ابن عباس وابن زيد ابن الجوزي في زاد المسير جـ ٤ ، ص ٢١٨ ، وإلى مجاهد صديق خان في فتح البيان جـ ٣ ، ص ٤١١ ، والطبرسي في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٢٩٨ ، والقرطبي في الجامع جـ ١ ، ص ١٨٠ ، والخازن في لباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٨٠ ، وإلى مجاهد والسدي وابن زيد وابن عباس وقتادة الطبري في جامع البيان جـ ٧ ، ص ٢٧٠ .

(٣)- هو قول مجاهد في الجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ١٨٠ ، والمحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٢٣٩ وقول قتادة في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٢٩٨ ، واللباب جـ ١١ ، ص ٨٤ ومعالم التنزيل جـ ٢ ، ص ٤٢٣ ولباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٨٠ وقول قتادة ومجاهد في زاد المسير جـ ٤ ، ص ٢١٨ وفتح البيان جـ ٣ ، ص ٤١١ وجامع البيان جـ ٧ ، ص ٢٧٠ .

(٤)- روح المعاني جـ ٧ ، ص ٣٤٦ .

(٥)- فتح القدير جـ ٣ ، ص ٣٢ وتفسير القرآن الكريم د / عبد الله شحاتة جـ ٦ ، ص ٢٣٢١ .

نلاحظ في هذا النص أن الإمام الآلوسي حكى خلاف المفسرين حول المراد بالقطع على ثلاثة أقوال :

القول الأول : أن القطع بمعنى الجرح .

القول الثاني : أن القطع هنا مجازي .

القول الثالث : أن القطع بمعنى الإبانة .

ثم اختار القول الأول وهو اختيار صحيح قائم على القاعدة التفسيرية .

(وجوب حمل كلام الله تعالى على المعروف من كلام العرب دون الشاذ والضعيف والمنكر) .

وهو الراجح لما يأتي :

أولاً : القطع المراد به الخدش والحز وذلك معروف في اللغة تقول كنت أقطع اللحم فقطعت يدي تريد جرحتها أي أردن أن يقطعن الطعام الذي في أيديهن فدهشن لما رأينه فخدشن أيديهن.[١] والقطع بمعنى الجرح شديد الملائمة لقولهن حاش الله .[٢]

ثانياً : في التعبير عن الجرح بالقطع مالا يخفي من الدلالة على كثرة جرحهن ومع ذلك لم يبالين بذلك ولم يشعرن به [٣] فالتضعيف في فقطعن يدل كأن الجرح وقع مراراً وأطلق على الجرح قطعاً للمبالغة في شدته حتى كأنه قطع قطعة من لحم اليد.[٤]

ثالثاً : قطع العظم لا يكون إلا بشدة ومحال أن يسهو أحد عنها والقطع على المفصل لا يتهيأ إلا بتطلف لابد أن يقصد والذي يشبه أنهن حملن على أيديهن الحمل الذي كن يحملنه قبل المتك فكان ذلك حزاً .[٥]

رابعاً : أكثر المفسرين على أن القطع المراد به الجرح دون الإبانة وإليك بعض أقوالهم:

قال الخازن :

" والأصح أنه كان قطعاً من غير إبانة " .[٦]

وقال ابن عطية :

" كان ذلك حزاً وهذا قول الجماعة " .[٧]

وقال البغوي : [١]

---

(١)- معاني الزجاج جـ ٣ ، ص ١٠٦ وتفسير النسفي للإمام أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي جـ ٢ ، ص ٢٢٠ ، ط دار إحياء الكتب العربية .

(٢)- غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٨٣ .

(٣)- إرشاد العقل السليم جـ ٤ ، ص ٢٧٢ .

(٤)- تفسير التحرير والتنوير جـ ١٢ ، ص ٢٦٣ .

(٥)- المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٢٣٩ .

(٦)- لباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٨٠ .

(٧)- المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٢٣٩ .

" الأصح كان قطعاً بلا إبانة " . [٢]

وقال ابن كثير :

" المراد حززن أيديهن بها " . [٣]

وقال الشهاب في حاشيته :

" القطع ليس بمعنى الإبانة كما قيل لأنه خلاف الظاهر " . [٤]

وقال صاحب الفتوحات الإلهية :

" ليس المراد التقطيع الحقيقي بل المراد جرحن أيديهن حتى سال الدم " . [٥]

وهكذا يتضح أن ما رجحه الآلوسي هو الراجح من أن القطع هو الجرح وهو مستعمل إلى اليوم بالإرث عن قدماء العرب فيمن يحاول قطع شيء فتصيب السكين يده فتجرحها يقول : كنت أقطع اللحم فقطعت يدي أي جرحتها .

---

(١)- البغوي : الحسين بن مسعود بن محمد العلامة أبو محمد البغوي الفقيه الشافعي يلقب بمحي السنة كان إماماً في التفسير والحديث والفقه من تصانيفه معالم التنزيل في التفسير وشرح السنة والتهذيب في الفقه توفى سنة ست عشرة وخمسمائة (طبقات المفسرين للسيوطي جـ ١ ، ص ٥٠) .

(٢)- معالم التنزيل للبغوي جـ ٢ ، ص ٤٢٣ .

(٣)- تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٤ ، ص ٢٣ .

(٤)- حاشية الشهاب جـ ٥ ، ص ١٧٤ .

(٥)- الفتوحات الإلهية جـ ٢ ، ص ٤٥٠ .

obeikandl.com

المسألة الثامنة عشرة
إطلاق الحين

في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ (١)

قال الإمام الآلوسي: :

" حتى حين " قال ابن عباس : إلى انقطاع المقال وما شاع في المدينة من الفاحشة (٢) وقيل : الحين ها هنا خمس سنين (٣) وقيل : بل سبع (٤) وقال مقاتل : إنه عليه السلام حبس اثنتي عشرة سنة (٥) والأولى أن لا يجزم بمقدار . (٦)

المعنى الإجمالي للآية :

ثم ظهر للعزيز وسائر مشاوريه رأي جديد في يوسف من بعد ما رأوا هذه الآيات الدالة على براءته وعصمته وهو أن يسجنوه حينا من الزمان وسبب ظهور هذا الرأي لهم في سجن يوسف أنهم أرادوا ستر المقالة وكتم ما شاع في الناس من قصة امرأة العزيز معه . (٧)

دراسة النص :

---

(١)- سورة يوسف الآية ٣٥ .

(٢)- هو قول ابن عباس في مفاتيح الغيب جـ ١٧ ، ص ١٠٧ ، وغرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٨٤ وقول ابن عباس وعطاء في معالم التنزيل جـ ٢ ، ص ٤٢٥ واللباب جـ ١١ ، ص ٩٩ وقول عطاء في زاد المسير جـ ٤ ، ص ٢٢٢ ولباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٨٢ وقول الجبائي في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٢٩٩ .

(٣)- هو قول الكلبي في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٢٩٩ ، ولباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٨٢ ، واللباب جـ ١١ ، ص ٩٩ وقول الحسن في غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٨٤ ، وبدون نسبة في مفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ١٠٧ وفتح البيان جـ ٣ ، ص ٤١٦ .

(٤)- هو قول عكرمة في جامع البيان جـ ٧ ، ص ٢٨٠ ، والدر المنثور جـ ٨ ، ص ٢٤٨ ، والمحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٢٤٣ ، ولباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٨٢ ، وزاد المسير جـ ٤ ، ص ٢٢٢ ، ومجمع البيان جـ ٥ ، ص ٢٩٩ وقول سعيد بن جبير في فتح القدير جـ ٣ ، ص ٣٦ وفتح البيان جـ ٣ ، ص ٤١٦ وبدون نسبة في مفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ١٠٧ ، وغرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٨٤ .

(٥)- هو قول مقاتل في غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٨٤ ومفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ١٠٧ .

(٦)- روح المعاني جـ ٧ ، ص ٣٥٧ .

(٧)- فتح البيان جـ ٣ ، ص ٤١٦ ، الميزان جـ ١١ ، ص ١٧٣ .

openkandil.com

نلاحظ في هذا النص أن الإمام الآلوسي ذكر أقوال المفسرين في المراد بالحين على أربعة أقوال :

القول الأول : أن الحين إلى حين انقطاع المقالة فلا يقدر بمقدار إنما يجزم بالمدة الطويلة .

القول الثاني : أن الحين هنا خمس سنين .

القول الثالث : الحين هنا سبع سنين .

القول الرابع : الحين اثنتي عشرة سنة .

وقد رجح الإمام في الحين ألا يجزم بمقدار وقد أصاب الإمام في هذا الترجيح لتقويه بالقاعدة التفسيرية :

(إذا دار اللفظ بين أن يكون مقيداً أو مطلقاً فإنه يحمل على إطلاقه)

وهو الراجح لما يأتي :

أولاً : الحين في كلام العربّ وفي هذه الآية الوقت من الزمن غير محدد يقع للقليل والكثير ولا دلالة في الآية على تعيين مدة حبسه وإنما القدر المعلوم انه بقى محبوساً مدة طويلة لقوله تعالى ﴿ **وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ** ﴾ (١)

ثانياً : أن القرآن الكريم قد أبهم المدة التي أذنوا سجنه فيها إذ لا يتعلق بها الغرض من القصة . (٢)

وإنما أرادوا أن يكونوا مطلقي الحرية في طول مكثه وقصره وإخراجه ويروا ما يكون من تأثير السجن فيه وحديث الناس عنه . (٣)

قال الإمام الرازي :

" والصحيح أن هذه المقادير غير معلومة وإنما القدر المعلوم أنه بقى محبوساً مدة طويلة لقوله تعالى: ﴿ **وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ** ﴾ " . (٤)

وقال أبو حيان :

" الحين يدل على مطلق الوقت ومن عين له زماناً هنا فإنما ذلك باعتبار مدة سجن يوسف لا أنه موضوع في اللغة كذلك " . (٥)

وقال ابن الجوزي :

" أنه زمان غير محدود وهذا هو الصحيح لأنهم لم يعزموا على حبسه مدة معلومة " . (٦)

وقال الثعالبي :

---

(١)- المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٢٤٣ ، حاشية زاده جـ ٥ ، ص ٣٣ .

(٢)- التحرير والتنوير جـ ١٢ ، ص ٢٦٨ .

(٣)- تفسر القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار للإمام محمد رشيد رضا جـ ١٢ ، ص ٣٠١ ، ط دار الفكر ، الطبعة الثانية – بدون .

(٤)- مفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ١٠٧ .

(٥)- البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٢٧٤ .

(٦)- زاد المسير جـ ٤ ، ص ٢٢٢ .

" وفي هذه الآية الوقت من الزمان غير محدد يقع للقليل والكثير وذلك بيّن من موارده في القرآن " . (١)

وبناءً على ما سبق نخلص إلى صواب اختيار الآلوسي .

المسألة التاسعة عشرة

المراد بقوله أخوك أخوه حقيقة

في قوله: ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

والقول بأنه عليه السلام تعرف إليه وأعلمه بأنه أخوه حقيقة هو الظاهر وروي عن ابن عباس وابن إسحاق وغيرهما (٣) وقال وهب (٤) إنما أخبر عليه السلام أنه قائم مقام أخيه الذاهب في الود ولم يكشف إليه الأمر . (٥)(٦)

المعنى الإجمالي للآية :

ولما دخل ولد يعقوب على يوسف التقى يوسف عليه السلام بأخيه الحبيب المحسود من إخوته كما حسد هو وضمه إليه وأخبره سراً أنه أخوه دون أن يطلع عليه إخوته وقال له لا تحزن بما كانوا يعملون بنا فيما مضى فإن الله تعالى قد أحسن إلينا وجمعنا . (٧)

دراسة النص :

---

(١)- الجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ١٥٥ .

(٢)- سورة يوسف آية ٦٩ .

(٣)- هو قول ابن عباس وابن إسحاق في زاد المسير جـ ٤ ، ص ٢٥٥ ، والبحر المحيط جـ ٦ ، ص ٣٠١ ، وقول ابن عباس الكشاف جـ ٢ ، ص ٢٦٧ ، غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ١٠٩ ، إرشاد العقل السليم جـ ٣ ، ص ٢٩٤ وقول ابن إسحاق المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٢٦٣ ، الجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ١٦٥ ، جامع البيان جـ ٨ ، ص ٢١ ، والنكت والعيون جـ ٣ ، ص ٦٠ .

(٤)- وهب هو : أبو عبد الله وهب بن منبه اليماني الصنعاني صاحب القصص من خيار علماء التابعين وثقه جمهور العلماء بل أخرج له البخاري في صحيحه توفى سنة عشر ومائة ، انظر : تهذيب التهذيب جـ ٦ ، ص ١٠٧ .

(٥)- هو قول وهب في جامع البيان جـ ٨ ، ص ٢١ ، زاد المسير جـ ٤ ، ص ٢٥٥ ، المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٢٦٣ ، إرشاد العقل السليم جـ ٣ ، ص ٢٩٤ ، البحر الحيط جـ ٦ ، ص ٣٠١ ، اللباب جـ ١١ ، ص ١٥٧ ، الكشاف جـ ٢ ، ص ٢٦٧ ، مفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ١٤٢ ، غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ١٠٩ ، مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٣٢٤ وبدون نسبة فتح البيان جـ ٣ ، ص ٤٤١ ، فتح القدير جـ ٣ ، ص ٥٩ .

(٦)- روح المعاني جـ ٨ ، ص ٣٣ .

(٧)- إرشاد العقل السليم جـ ٣ ، ص ٢٩٤ ، زهرة التفاسير جـ ٧ ، ص ٣٨٤٢ .

نلاحظ في هذا النص أن الإمام الآلوسي ذكر قولين لأهل العلم في قول يوسف لأخيه أنا أخوك وهما :

القول الأول : أنه عليه السلام تعرف إليه وأعلمه أنه أخوه حقيقة .

القول الثاني : أنه أخبره أنه قائم مقام أخيه الذاهب في الود .

وقد رجح الإمام القول بأنه عليه السلام أخبره بأنه أخوه حقيقة وهو اختيار موفق يدل على صوابه القاعدة التالية :

(لا يجوز العدول عن ظاهر القرآن إلا بدليل يجب التسليم له)

وهو الراجح لما يأتي :

أولاً : لا وجه لصرف اللفظ عن ظاهره من غير ضرورة فالأخوة هنا هي الأخوة بالمعنى الخاص وهو أنهما شقيقان .

قال الإمام الرازي :

" والصحيح ما عليه سائر المفسرين من أنه أراد تعريف النسب ولأن ذلك أقوى في إزالة الوحشة وحصول الأنس ولأن الأصل في الكلام على الحقيقة فلا وجه لصرفه عنها إلى المجاز من غير ضرورة " . (١)

ثانياً : ظاهر السياق أنه عرفه بنفسه بإسرار القول إليه وسلاه عما عمله الأخوة وطيب نفسه ليزيل من نفسه المكروه في تحيله في أخذه منهم وأراد أن يفرحه أيضاً بأن الله قد أحسن إليه هو وأخوه وجمعهما على خير .

ثالثاً : ما يأتي بعد من أنه حين وضع السقاية في رحل أخيه ونادى إنكم لسارقون لم يتكلم أخوه من أول الأمر إلى آخره ولا بكلمة ولا نفى عن نفسه السرقة مما يدل على أن يوسف قد عرفه أنه أخوه وسلاه وطيب نفسه وعرفه ما هو غرضه من هذا الصنع.

رابعاً : وجوه التأكيد في قوله ﴿ **إِنِّي أَنَا أَخُوكَ** ﴾ وذلك إنما يناسب تعريفه نفسه بالنسب ليستيقن أنه هو يوسف .

وكذلك ما سيأتي من قوله لإخوته عند تعريفهم نفسه ﴿ **أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا** ﴾ (٢) فإنه إنما يناسب ما إذا علم أخوه أنه أخوه فاعتز بعزته (٣) وبهذا تقرر صواب اختيار الإمام الآلوسي وإليه مال الرازي (٤) والنيسابوري (٥) وأبو حيان (٦) وابن عادل . (٧)

---

(١)- مفاتيح الغيب للرازي جـ ١٨ ، ص ١٤٢ .

(٢)- سورة يوسف آية ٩٠ .

(٣)- الميزان جـ ١١ ، ص ٢٢٤ .

(٤)- مفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ١٤٢ .

(٥)- غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ١٠٩ .

(٦)- البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٣٠١ .

(٧)- اللباب جـ ١ ، ص ١٥٧ .

المسألة العشرون
حمل الأبوين على ظاهر اللفظ

في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ (١)

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

" آوي إليه أبويه " ، والمراد بهما أبوه وخالته ليا ، وقيل راحيل وليس بذاك ، والخالة تنزل منزلة الأم لشفقتها كما ينزل العم منزلة الأب ، وقيل إنه لما تزوجها بعد أمه صارت رابة ليوسف عليه السلام فنزلت منزلة الأم لكونها مثلها في زوجية الأب وقيامها مقامها ، والرابة تدعى أما وإن لم تكن خالة ، وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما (٢) وقال بعضهم : المراد أبوه وجدته أم أمه حكاه الزهراوي (٣) وقال الحسن ، وابن إسحاق : إن أمه عليه السلام كانت بالحياة فلا حاجة إلى التأويل (٤) لكن المشهور أنها

---

(١)- سورة يوسف الآية ٩٩ .

(٢)- نسبه إلى ابن عباس أبي حيان في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٣٢٦ ، وابن الجوزي في زاد المسير جـ ٤ ص ٢٨٨ ، ونسبه إلى سفيان بن عينية ووهب بن منبه السيوطي في الدر المنثور جـ ٨ ، ص ٣٣٨ ، والشوكاني في فتح القدير جـ ٣ ، ص ٨٠ ، ونسبه إلى وهب والسدي ابن أبي حاتم في مسنده ، جـ ٧ ص ٢٢٠١ ، ونسبه إلى السدي ابن عطية في المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٢٨١ ، والطبري في جامع البيان جـ ٨ ، ص ٨٨ ، وبدون نسبة في إرشاد العقل السليم جـ ٤ ، ص ٣٠٦ ، ومفاتيح الغيب جـ ١٨ ص ١٦٨ ، وغرائب القرآن جـ ٤ ، ص ١٢٥ ، والطبرسي في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٣٤١ ، واللباب جـ ١١ ، ص ٢١٢ ، وفتح البيان جـ ٣ ، ص ٤٦٢ ، والجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ١٧٤ ، والجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ٢٦٣ .

(٣)- نسبه إلى الزهراوي أبو حيان في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٣٢٦ ، وابن عطية في المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٢٨١ .

(٤)- نسبه إلى الحسن وابن إسحاق أبو السعود في إرشاد العقل السليم جـ ٤ ، ص ٣٠٧ ، وأبو حيان في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٣٢٦ ، وابن الجوزي في زاد المسير جـ ٤ ، ص ٢٨٨ ، وابن عطية في المحرر جـ ٣ ، ص ٢٨١ ، والثعالبي في الجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ١٧٤ ونسبه إلى قتادة السيوطي في الدر المنثور جـ ٨ ، ص ٣٣٨ ، والشوكاني في فتح القدير= =جـ ٣ ، ص ٨٠ ، وابن أبي حاتم في مسنده جـ ٧ ، ص ٢٢٠١ ، وصديق خان في فتح البيان جـ ٣ ، ص ٤٦٢ ، ونسبه إلى ابن إسحاق الطبري في جامع البيان جـ ٨ ، ص ٨٨ ، والنيسابوري في غرائب القرآن جـ ٤ ،

ماتت في نفاس بنيامين ، وعن الحسن وابن إسحاق القول بذلك أيضاً إلا أنهما قالا : إن الله تعالى أحياها له ليصدق رؤياه ، والظاهر أنه لم يثبت ولو ثبت مثله لاشتهر . (١)

المعنى الإجمالي للآية :

طوى القرآن الكريم مادل عليه السياق ، وهو أن إخوة يوسف بلغوا أباهم وسائر أهلهم ، أن يأتوا إليه جميعاً ، ليقيموا معه ، استجابة لطلبه لذلك ارتحلوا إليه ولما دخلوا عليه استقبلهم استقبالاً كريماً ثم ضم إليه أبويه واعتنقهما ، وقال لهم : ادخلوا بلاد مصر إن شاء الله آمنين على أنفسكم وأنعامكم من الجوع والهلاك ، ولا غرابة في هذه السماحة والكرم من يوسف عليه السلام ، فهو كريم من سلالة رسل كرماء . (٢)

دراسة النص :

نلاحظ في هذا النص أن الإمام الآلوسي ذكر أقوال أهل العلم في المراد بأبوي يوسف عليه السلام اللذين دخلا عليه مصر وهي كالآتي :

القول الأول : المراد بهما أبوه وخالته .

القول الثاني : المراد بهما أبوه وجدته أم أمه .

القول الثالث : المراد بهما أبوه وأمه .

ثم مال إلى القول بأن المراد بهما أبوه وخالته وهو بذلك قد خالف القاعدة التي تقول:

(لا يجوز العدول عن ظاهر القرآن إلا بدليل يجب الرجوع إليه)

وما ذهبنا إليه من أن المراد أبوه وأمه هو الراجح لما يأتي :

أولاً : الظاهر المتبادر إلى الذهن من كلمة الأبوين أنهما الأب والأم حقيقة وهذا هو الغالب المستعمل في كلام الناس والمتعارف بينهم .

قال الإمام الطبري :

" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب ما قاله ابن إسحاق لأن ذلك هو الأغلب في استعمال الناس والمتعارف بينهم في أبوين إلا أن يصح ما يقال من أن أم يوسف كانت قد ماتت قبل ذلك بحجة يجب التسليم لها فيسلم حينئذ لها " . (٣)

ثانياً : أنه لم يثبت بسند يقطع العذر وفاة أم يوسف عليه السلام ، فوجب القول بظاهر اللفظ ، إذ لم يدل دليل على خلاف ذلك .

قال الشيخ صديق خان :

ص ١٢٥ ، والزمخشري في الكشاف جـ ٢ ، ص ٢٧٥ ، ونسبه إلى ابن إسحاق والجباني الطبرسي في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٣٤١ ، ونسبه إلى الحسن القرطبي في الجامع جـ ٩ ، ص ٢٦٣ .

(١)- روح المعاني جـ ٨ ، ص ٨٢ .

(٢)- تفسير القرآن الكريم د / عبد الله شحاتة جـ ٧ ، ص ٢٣٩٤ .

(٣)- جامع البيان للطبري جـ ٨ ، ص ٨٨ .

" أن أمه كانت باقية فلا حاجة إلى التأويل وهو الأولى بظاهر النظم القرآني ". [١]

وقال ابن عطية :

" أراد بالأبوين أباه وأمه وهو أظهر بحسب اللفظ إلا أن يثبت بسند أن أمه قد كانت ماتت " . [٢]

وقال أبو حيان :

" والظاهر أنهما أبوه وأمه " . [٣]

وعلى هذا فالراجح من لفظ الأبوين هما الأب والأم حقيقة فإن تعبير القرآن هو الصادق حتى يقوم الدليل على خلافه .

---

(١)- فتح البيان جـ ٣ ، ص ٤٦٢ .

(٢)- المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٢٨١ .

(٣)- البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٣٢٦ .

obeikandl.com

المسألة الحادية والعشرون
ليس للسماوات عمد تقوم عليها

في قوله تعالى:﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ (١)
قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

" ترونها " جوز كون الجملة في موضع الحال من السماوات أي رفعها مرئية لكم بغير عمد ، وجوز كون الجملة صفة للعمد فالضمير لها ، وعلى تقدير الوصفية يحتمل توجه النفي إلى الصفة والموصوف لأنها لو كانت لها عمد كانت مرئية (٢) ويحتمل توجهه إلى الصفة فيفيد أن لها عمداً لكنها غير مرئية وروي ذلك عن مجاهد وغيره (٣) وأخرج ابن حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : السماء على أربعة

---

(١)- سورة الرعد آية ٢ .

(٢)- نسبه إلى إياس بن معاوية وقتادة الطبري في جامع البيان جـ ٨ ، ص ١٢٢ ، والقرطبي في الجامع للأحكام جـ ٩ ، ص ٢٧٩ ، والسيوطي في الدر المنثور جـ ٨ ، ص ٣٦١ ، والماوردي في النكت والعيون جـ ٣ ، ص ٩٢ ، ونسبه إلى إياس بن معاوية البغوي في معالم التنزيل جـ ٣ ، ص ٥ ، والشوكاني في فتح القدير جـ ٣ ، ص ٩٣ ، وابن عطية في المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٢٩١ ، ونسبه إلى الحسن وقتادة ابن الجوزي في زاد المسير جـ ٤ ، ص ٣٠١ ، ونسبه إلى إياس بن معاوية والحسن وقتادة وابن عباس الخازن في لباب التأويل جـ ٣ ، ص ٣ وزاد الطبرسي الجبائي وأبو مسلم في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٣٥٤ ونسبه إلى ابن عباس أبي حيان في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٣٤٤ .

(٣)- نسبه إلى ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة الطبري في جامع البيان جـ ٨ ، ص ١٢٢ ، ونسبه إلى ابن عباس ومجاهد السيوطي في الدر المنثور جـ ٨ ، ص ٣٦١ ، وابن أبي حاتم في مسنده جـ ٧ ، ص ٢٢١٦ ، والطبرسي في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٣٥٤ ، وابن عادل في اللباب جـ ١١ ، ص ٢٣٧ ، وابن كثير في تفسيره جـ ٤ ، ص ٦٥ ، ونسبه إلى مجاهد وقتادة وابن عباس أبو حيان في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٣٤٤ ، وابن عطية في المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٢٩١ ، وإلى ابن عباس ومجاهد وعكرمة ابن الجوزي في زاد المسير جـ ٤ ، ص ٣٠١ ، والخازن في لباب التأويل جـ ٣ ، ص ٣ ، ونسبه إلى ابن عباس القرطبي في الجامع للأحكام جـ ٩ ، ص ٢٧٩ ، والماوردي في النكت والعيون جـ ٣ ، ص ٩٢ ، والشوكاني في فتح القدير جـ ٣ ، ص ٩٣ ، وإلى الحسن الرازي في مفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ١٨٦ .

أملاك كل زاوية موكل بها ملك [١] وزعم بعضهم أن العمد جبل قاف فإنه محيط بالأرض والسماء عليه كالقبة وتعقبه الإمام بأنه في غاية السقوط [٢] وفي القلب من صحة ذلك ما فيه بل أنا أجزم بأن السماء ليست محمولة إلا على كاهل القدرة والظاهر أنها محيطة بالأرض من سائر جهاتها كما روي عن الحسن . [٣]

المعنى الإجمالي للآية :

لما ذكر تعالى أنهم لا يؤمنون عرف الدليل الذي يوجب التصديق بالخالق عز وجل فقال " الله الذي رفع السماوات بغير عمد " وفي ذلك من القدرة والدلالة مالا شيء أوضح منه أن السماء محيطة بالأرض متبرمة منها بغير عمد . [٤]

دراسة النص :

نلاحظ في هذا النص أن الإمام الآلوسي حكى قولي المفسرين في إثبات أو نفي العمد للسماوات ، ثم اختار القول بأن لا عمد للسماوات وهو اختيار رشيد تدل على صحته القاعدتان الآتيتان :

(القول الذي تؤيده آيات قرآنية مقدم على ما سواه)

(القول الذي تؤيده قرينة في السياق مرجح على ما خالفه)

وهو الراجح لما يأتي :

أولاً : قوله تعالى ﴿ **وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ** ﴾ [٥] دلالة على قوة اختيار الآلوسي لأنها صريحة في بيان أن السماء مرفوعة بقدرة الله عز وجل غير محتاجة إلى عمد .

فلو كان لها عمد لاحتاجت تلك العمد إلى عمد ويتسلسل الأمر فالظاهر أنها ممسكة بالقدرة الإلهية . [٦]

ثانياً : القول بأن السماء غير مرفوعة على عمد هو اللائق بالسياق لأن الآية جاءت في سياق الآيات الدالة على كمال قدرة الله عز وجل والقول بأن لا عمد للسماوات هو القول الدال على القدرة أما لو كان للسماوات عمد ولكن لا نراها لما ثبتت الحجة ، لأنه يمكن أن يقال : إذا كانت السماء مستقرة على عمد فأي دلالة لثبوتها على قدرة الله عز وجل . [٧]

قال ابن كثير :

---

(١)- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم جـ ٧ ، ص ٢٢١٦ .

(٢)- مفاتيح الغيب للرازي جـ ١٨ ، ص ١٨٦ .

(٣)- روح المعاني جـ ٨ ، ص ١٢٥ .

(٤)- معاني القرآن للزجاج جـ ٣ ، ص ١٣٦ .

(٥)- سورة الحج آية ٦٥ .

(٦)- البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٣٤٤ .

(٧)- مفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ١٨٦ .

" وهذا هو اللائق بالسياق والظاهر من قوله تعالى ﴿ **وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ** ﴾ فعلى هذا يكون قوله " ترونها " تأكيداً لنفي ذلك أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها وهذا هو الأكمل في القدرة " . (١)

وقال الإمام الطبري :

" وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال كما قال الله تعالى ﴿ **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا** ﴾ فهي مرفوعة بغير عمد نراها كما قال ربنا جل ثناؤه ، ولا خبر بغير ذلك ولا حجة يجب التسليم لها بقول سواه " . (٢)

وقال أبو حيان :

" والجمهور على أن السماوات لا عمد لها البتة " . (٣)

فلو كان الأمر كذلك ترجح القول بان لا عمد للسماوات البتة وإليه مال ابن الجوزي(٤) والشنقيطي (٥) والثعالبي (٦) وابن عطية (٧) والرازي (٨) وصديق خان . (٩)

---

(١)- تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٤ ، ص ٦٥ .

(٢)- جامع البيان جـ ٨ ، ص ١٢٣ .

(٣)- البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٢٤٤ .

(٤)- زاد المسير جـ ٤ ، ص ٣٠١ .

(٥)- أضواء البيان جـ٣ ، ص ٧٧ .

(٦)- الجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ١٧٩ .

(٧)- المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٢٩١ .

(٨)- مفاتيح الغيب جـ ١٨ ، ص ١٨٦ .

(٩)- فتح البيان جـ ٣ ، ص ٤٧٧ .

obeikandl.com

المسألة الثانية والعشرون
اليأس بمعنى العلم
في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ (١)

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

ومعنى قوله " أفلم ييأس الذين آمنوا " أفلم يعلموا وهي كما قال القاسم بن معن لغة هوازن (٢) وقال ابن الكلبي : هي لغة حي من النخع (٣) وأنشدوا على ذلك قول سحيم بن وثيل الرباحي :

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم . (٤)

---

(١)- سورة الرعد آية ٣١ .

(٢)- هو قول القاسم في جامع البيان جـ ٨ ، ص ٢٠١ ، والبحر المحيط جـ ٦ ، ص ٣٨٩ ، والمحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٣١٣ ، والجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ٣١٩ ، والدر المنثور للسيوطي جـ ٨ ، ص ٤٥٨ ، واللباب جـ ١١ ، ص ٣٠٧ ، وبدون نسبة في فتح القدير جـ ٣ ، ص ١١٩ ، ولباب التأويل جـ ٣ ، ص ٢٣ ، وإرشاد العقل السليم جـ ٥ ، ص ٢٢ ، والجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ٣٢٠ ، الجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ١٨٨ ، وفتح البيان جـ ٣ ، ص ٥١٠ ، والتحرير والتنوير جـ ١٣ ، ص ١٤٥ .

(٣)- هو قول الكلبي في جامع البيان جـ ٨ ، ص ٢١٠ ، والدر المنثور جـ ٨ ، ص ٤٥٨ ، والجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ٣١٩ ، والبحر المحيط جـ ٦ ، ص ٣٨٩ ، والمحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٣١٣ ، واللباب جـ ١١ ، ص ٣٠٧ ، وفتح القدير جـ ٣ ، ص ١١٨ ، ولباب التأويل جـ ٣ ، ص ٢٣ ، وفتح البيان جـ ٣ ، ص ٥١٠ ، وبدون نسبة في الكشاف جـ ٢ ، ص ٢٨٨ ، وغرائب القرآن جـ ٤ ، ص ١٦٤ ، وزاد المسير جـ ٤ ، ص ٢٣١ .

(٤)- انظر : مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي المتوفى ٢١٠هـ ، جـ ١ ، ص ٣٣٢ ، ط مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الثانية ١٤٠١هـ - ١٩٨٨م ، وتأويل مشكل القرآن لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ٢٣١-٢٧٦هـ ، تحقيق السيد أحمد صقر ص ١٤٨ ، ط دار التراث – القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م ، وأساس البلاغة للزمخشري جـ ٢ ، ص ٥٥٨ ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثالثة ١٩٨٥ ، والجامع للقرطبي جـ ٩ ص ٣٢٠ ، والبحر المحيط جـ ٦ ، ص ٣٨٩ ، وجامع البيان جـ ٨ ، ص ٢٠١ ، والدر المصون جـ ٤ ، ص ٢٤٣ .

وقول رباح بن عدي :

ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائياً .[١]

فإنكار الفراء [٢] وزعمه أنه لم يسمع أحد من العرب يقول يئست بمعنى علمت ليس في محله [٣] ومن حفظ حجة على من لم يحفظ ، والظاهر أن استعمال اليأس في ذلك حقيقة [٤] وقيل : مجاز لأنه متضمن للعلم فإن الآيس عن الشيء عالم بأنه لا يكون [٥] ويشهد لإرادة العلم هنا قراءة علي كرم الله تعالى وجهه وابن عباس وعلي بن الحسين[٦]

---

(١)- انظر : جامع البيان جـ ٨ ، ص ٢٠١ ، والجامع للقرطبي جـ ٩ ، ص ٣٢٠ ، والبحر المحيط جـ ٦ ، ص ٣٨٩ ، والدر المصون جـ ٤ ، ص ٢٤٣ ، والإتقان جـ ١ ، ص ١٢٢ .

(٢)- الفراء : هو العلامة أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسدي ، صاحب الكسائي ومن أعلم أهل الكوفة بالنحو بعده ، كان ثقة وقال بعضهم : الفراء أمير المؤمنين في النحو وقيل : عرف بالفراء لأنه كان يفري الكلام وله مصنفات من أشهرها : معاني القرآن مات بطريق الحج سنة سبع ومائتين وله ثلاث وستون سنة ، انظر : الفهرست لأبي الفرج محمد بن إسحاق بن النديم جـ ١ ، ص ٩٨ ، ط دار المعرفة – بيروت سنة ١٣٩٨هـ ، أبجد العلوم لصديق بن حسن القنوجي جـ ٣ ، ص ٤٩ ، تحقيق عبد الجبار زكار ، ط دار الكتاب العلمية، بيروت سنة ١٩٧٨م ، وسير أعلام النبلاء جـ ١٠ ، ص ١١٨ ، وطبقات المفسرين للداودي جـ ٢ ، ص ٣٦٧ .

(٣)- انظر : معاني القرآن للفراء جـ ٢ ، ص ٦٤ ، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد على النجار ، ط دار السرور .

(٤)- هو قول علي وابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وابن زيد في جامع البيان جـ ٨ ، ص ٢٠٢ ، وزاد الطبرسي سعيد بن جبير وأبو مسلم في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٣٧٩ ، وزاد المسير جـ ٤ ، ص ٣٣١ ، والدر المنثور جـ ٨ ، ص ٤٥٨ ، والمحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٣١٣ ، ونسبه إلى علي وابن عباس الثعالبي في الجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ١٨٨ ، والنيسابوري في غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ١٦٤ ، وإرشاد العقل السليم جـ ٥ ، ص ٢٢ ، والزمخشري في الكشاف جـ ٢ ، ص ٢٨٨ ونسبه إلى مجاهد والحسن وقتادة الرازي في مفاتيح الغيب جـ ١٩ ، ص ٤٣ .

(٥)- انظر : معاني القرآن وإعرابه للزجاج جـ ٣ ، ص ١٤٩ .

(٦)- علي بن الحسين : هو علي بن الحسين بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الهاشمي ، المعروف بزين العابدين حدث عنه أبيه وعن جده مرسلاً ، كان عابداً زاهداً ، قال لأهل العراق يا أهل العراق أحبونا حب الإسلام ولا تحبونا حب الأصنام ، مات سنة أربع وتسعين وقيل غير ذلك . سير أعلام النبلاء جـ ٤ ، ص ٣٦٨ .

obeikandl.com

رضي الله تعالى عنهم وعكرمة وابن أبي مليكة [١] والجحدري [٢] وأبي يزيد المدني وجماعة " أفلم يتبين " من تبينت كذا إذا علمته وهي قراءة مسندة إلى رسول الله ليست مخالفة للسواد . [٣]

المعنى الإجمالي للآية :

أن جماعة من الكفار سألوا رسول الله ﷺ أن يسأل الله عز وجل أن يسير لهم جبال مكة حتى تنفسح فإنها أرض ضيقة فأمره سبحانه بأن يجيب عليهم بهذا الجواب المتضمن لتعظيم شأن القرآن بأنه لو هناك قرآن زعزعت به الجبال عن مقارها أو شققت به الأرض وجعلت أنهاراً أو عيوناً أو أحيي به الموتى لكان ذلك هذا القرآن ولكن لم يفعل تعالى بل فعل ما عليه الشأن الآن فلو شاء أن يؤمنوا لآمنوا أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً من غير أن يشاهدوا الآيات . [٤]

دراسة النص :

نلاحظ في هذا النص أن الإمام الآلوسي أورد قولي المفسرين في المراد باليأس في الآية وهما :

القول الأول : أن يئس بمعنى علم .

القول الثاني : أنه من اليأس المعروف .

وقد رجح الآلوسي أن اليأس بمعنى العلم وهو كلام غاية في الجودة مع إيجازه ، غير أنه يحتاج إلى مزيد من البسط حتى تتضح المسألة أكثر وهو اختيار سديد تقويه القواعد الآتية :

(الوجه التفسيري الموافق لرسم المصحف أولى من الوجه المخالف له)
(تفسير السلف وفهمهم لنصوص الوحي حجة على من بعدهم)
(إذا ثبتت القراءة فلا يجوز ردها أو رد معناها وهي بمنزلة آية مستقلة)

---

(١)- ابن أبي مليكة : هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة التيمي المكي ، كان قاضياً لابن الزبير ومؤذناً له ، من رجال الحديث الثقات ، ولاه ابن الزبير قضاء الطائف ، روى عن العبادلة الأربعة ، قال ابن حبان في الثقات رأى ثمانين من الصحابة ، وقال أبو حاتم ثقة وقال البخاري مات سنة سبع عشرة ومائة . تهذيب التهذيب جـ ٥ ، ص ٢٦٨ ، و الأعلام جـ ٤ ، ص ١٠٢ .

(٢)- الجحدري : هو عاصم بن العجاج الجحدري البصري ، ذكره ابن حبان في الثقات وقال : كان من عباد أهل البصرة وقرائهم ، مات سنة تسع وعشرين ومائة ، انظر : التاريخ الكبير للبخاري جـ ٦ ، ص ٤٨٦ ، تحقيق السيد هاشم الندوي ، ط دار الفكر ، بيروت ، والجرح والتعديل جـ ٦ ، ص ٣٤٩ والثقات لأبي حاتم محمد بن حبان البستي جـ ٥ ، ص ٥٤٠ . مراجعة السيد شرف الدين ، ط دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .

(٣)- روح المعاني جـ ٨ ، ص ٢٢٤ .

(٤)- انظر : فتح القدير جـ ٣ ، ص ١١٨ ، وإرشاد العقل السليم جـ ٥ ، ص ٢١ .

وهو الراجح لما يأتي :

أولاً : يشهد لما رجحه الآلوسي قراءة علي كرم الله وجهه وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين " أفلم يتبين " . (١)

قال الحافظ ابن حجر : (٢)

" قرأ بهذه القراءة ابن عباس كما رواه الطبري وعبد بن حميد بإسناد صحيح كلهم من رجال البخاري عن ابن عباس (٣) وليست مخالفة للسواد إذا كتبوا ييئس بغير صورة الهمزة" .

ثانياً : تظافرت النقول على أنها لغة لبعض العرب والقرآن إنما نزل بلغاتهم كما قال القاسم بن معن (٤) أنها لغة هوازن وقال الكلبي هي لغة حي من النخع وأنشدوا على ذلك قول سحيم بن وثيل الرباحي (٥) :

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

وقول رباح بن عدي :

ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائياً

---

(١)- انظر : المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لأبي الفتح عثمان بن جني جـ ١ ، ص ٣٥٨ ، تحقيق علي النجدي ناصف ، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٣٨٦ .

(٢)- الحافظ ابن حجر : شيخ الإسلام ، وإمام الحفاظ في زمانه ، وحافظ الديار المصرية ، بل حافظ الدنيا مطلقاً ، قاضي القضاة، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد الكناني العسقلاني الشافعي المصري المولد والنشأة والدار والوفاة ، ولد في سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة طاف بكثير من البلدان وسمع من علمائها ، وصنف التصانيف التي عم النفع بها مثل فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، وتقريب التهذيب ، والدرر الكامنة وغيرها توفى سنة اثنين وخمسين وثمانمائة ، انظر : طبقات الحفاظ جـ ١ ، ص ٥٥٢ ، وفيات الأعيان جـ ٧ ، ص ٢٧٠ .

(٣)- فتح الباري لابن حجر جـ ٨ ، ص ٢٤ كتاب التفسير باب تفسير سورة الرعد .

(٤)- القاسم بن معن : هو القاسم بن معن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود كان من علماء الكوفة بالعربية واللغة والفقه والحديث والشعر والأخبار ، ومن الزهاد الثقات ، لم يكن له بالكوفة في عصره نظير ، وكان من الأثبات في النقل واللغة ، جالس أبي حنيفة وحدث عن عاصم الأحوال وغيره ، من تصانيفه النوادر في اللغة ، وغريب المصنف ، وكتباً في النحو ، مات سنة خمس وسبعين ومائة وقيل غير ذلك . بغية الوعاة جـ ١ ، ص ٢٦٣ .

(٥)- سحيم بن وثيل الرباحي : هو سحيم بن وثيل بن عمرو الرباحي اليربوعي التميمي ، شاعر مخضرم ، عاش في الجاهلية والإسلام وناهز عمره المائة ، كان شريفاً في قومه ، نابه الذكر ، له أخبار مع زياد ابن أبيه و مفاخرة مع غالب بن صعصعة والد الفرزدق ، قال ابن دريد عاش أربعين سنة في الجاهلية وستين في الإسلام ، توفى سنة ستين هجرية . الأعلام جـ ٣ ، ص ٧٩ .

openkanar.com

ومن حفظ حجة على من لم يحفظ وقد حفظ ذلك القاسم بن معن من ثقات الكوفيين وأجلائهم .[١]

قال الإمام الطبري :

" والصواب من القول في ذلك ما قاله أهل التأويل : إن تأويل ذلك : أفلم يتبين ويعلم لإجماع أهل التأويل على ذلك والأبيات التي أنشدناها فيه " .[٢]

ثالثاً : أن اليأس في معناه اللغوي بمعنى العلم أيضاً .[٣]

قال أبو عبيدة : أفلم ييأس معناه ألم يعلم ويتبين .[٤]

رابعاً : استعمل اليأس هنا بمعنى العلم لتضمينه معناه لأن اليائس عن الشيء عالم بأنه لا يكون كما استعمل الرجاء في معنى الخوف والنسيان في معنى الترك لتضمينه ذلك.[٥]

فوقوع اليأس في مكان العلم لأن علمك بالشيء ويقينك به ييئسك من غيره [٦]

وعليه فإن الراجح في الآية هو ما رجحه الآلوسي .

---

(١)- انظر : البحر المحيط لأبي حيان جـ ٦ ، ص ٣٩١ .

(٢)- جامع البيان للطبري جـ ٨ ، ص ٢٠٢ .

(٣)- انظر : مختار الصحاح ص٧٤٠ ، معاني القرآن للزجاج جـ ٣ ، ص ١٤٩ ، وأساس البلاغة جـ ٢ ، ص ٥٥٨ .

(٤)- مجاز القرآن لأبي عبيدة جـ ١ ، ص ٣٣٢ .

(٥)- الكشاف للزمخشري جـ ٢ ، ص ٢٨٨ .

(٦)- لباب التأويل للخازن جـ ٣ ، ص ٢٣ .

obeikandl.com

المسألة الثالثة والعشرون
المراد بنقصان الأرض فتحها

في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ (١)

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

" ننقصها من أطرافها " من جوانبها بأن نفتحها شيئاً فشيئاً ونلحقها بدار السلام ونذهب منها أهلها بالقتل والأسر والإجلاء أليس هذا مقدمة لذلك ، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٢) وروي ذلك عن ابن عباس ، والحسن ، والضحاك ، والسدى (٣) وغيرهم (٤) وروي عن ابن عباس أيضاً وأخرجه الحاكم وصححه أن انتقاص الأرض موت أشرافها وكبرائها وذهاب العلماء منها(٥) وفي رواية عن أبي هريرة يرفعه إلى رسول الله الاقتصار على الأخير(٦)

---

(١)- سورة الرعد آية ٤١ .

(٢)- سورة الأنبياء آية ٤٤ .

(٣)- السدى هو : إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة ، الإمام المفسر ، أبو أحمد ، أحد موالي قريش والسدي بضم المهملة وتشديد الدال نسبة إلى السدة وهي الباب ، صاحب التفسير ، حدث عن أنس وابن عباس وغيرهما ، قال النسائي : صالح الحديث ، وقال أبو حاتم : يكتب حديثه ولا يحتج به ، مات سنة سبع وعشرين ومائة (انظر: سير أعلام النبلاء جـ ٥ ، ص ٢٦٤ ، وتهذيب الكمال للمزي جـ ٣ ص ١٣٢. واللباب في تهذيب الأنساب لعز الدين بن الأثير الجزري جـ ٢ ، ص ١١٠ ، ط مكتبة المتنبي ، بغداد .

(٤)- نسبه إلي ابن عباس والضحاك والحسن الطبري في جامع البيان جـ ٨ ، ص ٢٢٦، وابن الجوزي في زاد المسير جـ٤ ، ص٣٤٠ ، وزاد الطبرسي مقاتل في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٣٨٨ ، وزاد القرطبي مجاهد وقتادة في الجامع للأحكام جـ ٩ ، ص ٣٣٣ ، ونسبه إلي ابن عباس والضحاك وعطية والسدي السيوطي في الدر المنثور جـ ٨ ، ص ٤٧٩ ، ونسبه إلى ابن عباس والضحاك أبو حيان في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٤٠٠ ، وابن عطية في المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٣١٩ ، ونسبه إلى قتادة صديق خان في فتح البيان جـ ٣ ، ص ٥٢٠ ، ونسبه إلى الحسن والضحاك إبن كثير في تفسيره جـ ٤٥ ، ص ١٠٤، وإلى ابن عباس وقتادة البغوي في معالم التنزيل جـ ٣ ، ص ٢٤ ونسبه إلى قتادة الماوردي في النكت والعيون جـ ٣ ، ص ١١٩ .

(٥)- أخرجه الحاكم في المستدرك جـ ٢ ، ص٣٥٠ قال عنه هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٦)- انظر: الدر المنثور للسيوطى جـ ٨ ، ص ٤٧٨ ، وفتح القدير جـ ٣ ، ص ١٢٩.

وروي أيضا عن مجاهد [١] وقيل : نقصها هلاك من هلك من الأمم قبل قريش وخراب أرضهم [٢] أي لم يروا هلاك من قبلهم وخراب ديارهم فكيف يأمنون من حلول ذلك بهم والأول أوفق بالمقام . [٣]

المعنى الإجمالي للآية :

أو لم ير أهل مكة أنا نأتي أرضهم فننقصها من أطرافها بفتح القرى واحدة بعد الواحدة للمسلمين فليخافوا أن نفتح بلدتهم وننتقم منهم وذلك من آيات النصرة والغلبة فعليك بالبلاغ يا محمد ولا تهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه والغلبة لله سبحانه فإنه يحكم لا راد لحكمه فقد حكم للإسلام بالغلبة والإقبال وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس . [٤]

دراسة النص :

نلاحظ في هذا النص أن الإمام الآلوسي حكى خلاف المفسرين حول المراد بنقصان الأرض على ثلاثة أقوال :

القول الأول : المراد بنقصان الأرض فتحها وإلحاقها بدار الإسلام .

القول الثاني : المراد بنقصان الأرض موت أشرافها وذهاب العلماء منها .

القول الثالث : المراد بنقصان الأرض هلاك الأمم من قبل قريش .

وقد مال الآلوسي إلى القول بأن المراد بنقصان الأرض فتحها وهو ترجيح موفق مؤسس على القاعدتين التاليتين :

(إدخال الكلام في معاني ما قبله وما بعده أولى من الخروج به عنهما إلا بدليل يجب التسليم له)

و(القول الذي تؤيده آيات قرآنية مقدم على ما عدم ذلك)

---

(١)- نسبه إلى ابن عباس والضحاك ومجاهد الطبري في جامع البيان جـ ٨ ، ص ٢٢٦، والقرطبي في الجامع للأحكام جـ ٩ ، ص ٣٣٣ ، وابن عطية في المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٣١٩ ، و صديق خان في فتح البيان جـ ٣ ، ص ٥٢٠ ، وزاد بن كثير عطاء في تفسيره جـ ٤ ، ص ١٠٤ ، وأبي حيان في البحر جـ ٦، ص ٤٠٠ ، وزاد الطبرسي عطاء وسعيد بي جبير والبلخي في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٣٨٨ ، ونسبه إلى ابن عباس الماوردي في النكت والعيون جـ ٣ ، ص ١١٩، والرازي في مفاتيح الغيب جـ ١٩ ، ص ٥٤ ، والنيسابوري في غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ١٦٦ . وابن عادل في اللباب جـ ١١ ، ٣٢٣ ، ونسبه إلى عطاء البغوي في معالم التنزيل جـ ٣ ، ص ٢٤ ، والخازن في لباب التأويل جـ ٣، ص ٢٩ونسبه إلى ابن عباس وعطاء ابن الجوزي في زاد .المسير جـ ٤ ، ٣٤٠ والثعالبي في الجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ١٩٠ ، ونسبة إلي ابن العباس ومجاهد السيوطى في الدر المنثور جـ ٨ ، ص ٤٧٩ .

(٢)- ونسبه إلى ابن عباس ومجاهد وابن جريج القرطبي في الجامع للأحكام جـ ٩ ، ص ٣٣٣ وبدون نسبة في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٤٠٠ ، وفتح البيان جـ ٣ ، ص ٥٢٠ .

(٣)- روح المعاني جـ ٨ ، ص ٣٤٦ .

(٤)- انظر جامع البيان جـ ٨ ، ص ٢٢٦ . والكشاف جـ ٢ ، ص ٣٩١ .

وهو الراجح لما يأتي :

أولاً : أن ذلك أبلغ في اعتبارهم وعظتهم فإن ما زاد في دار الإسلام فقد نقص في دار الشرك وذلك أن المسلمين إذا استولوا على بلاد الكفار قهراً وتخريباً كان ذلك نقصاناً في ديارهم وزيادة في ديار المسلمين وقوتهم وكان ذلك من أقوى الدلائل على أن الله ينصر عبده ويعز جنده ويظهر دينه وينجز له ما وعده[١] .

ثانياً : جملة هذه الآية الموعظة وضرب المثل ، أي ألم يروا فيقع منهم اتعاظ وأليق ما يقصد بلفظ الآية هو تنقص الأرض بالفتوح على ﷺ [٢] فالله تعالى حينما أمره بالبلاغ وعده النصروالظفر فذكر له هنا ما ذكر من طلوع تباشير الظفر. [٣]
فهذا هو الأصح لأنه يتصل بما وعده من إظهار دينه ونصرته .

ثالثا : توجد لهذه الآية نظائر أخرى في كتاب الله تعالى تؤيد المعنى المرجح وهو قوله تعالى: ﴿ **أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ**﴾ [٥]

قال الحافظ ابن كثير :

" وهذا القول أولى وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية كقوله: ﴿ **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى** ﴾ " [٦]

رابعاً : الآية التي معنا مرتبطة بما قبلها مما يجعلها توضح المعنى المرجح وتجعله هو المراد .

قال الشهاب في حاشيته :

" أن ذلك مرتبط بما قبله يعني لم يؤخر عذابهم لإمهالهم بل لوقته المقدر أو ما ترى نقص ما في أيدهم من البلاد وزيادة ما لأهل الإسلام ولم يخاطب النبي ﷺ به تعظيماً له وخاطبهم تهويلاً وتنبيهاً عن سنة الغفلة " . [٧]

وقال الإمام الطبري :

" وأولي الأقوال في تأويل ذلك بالصواب قول من قال " أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها " ، بظهور المسلمين من أصحاب محمد ﷺ عليها وقهرهم أهلها ، أفلا يعتبرون بذلك فيخافون ظهورهم على أرضهم وقهرهم إياهم ، وذلك أن الله توعد الذين سألوا رسوله الآيات من مشركي قومه بقوله "وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب " ثم وبخهم تعالى ذكره بسوء اعتبارهم ما يعاينون من فعل الله بضربائهم من الكفار وهم مع ذلك يسألون الآيات فقال ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا**

---

(١)- لباب التأويل جـ ٣ ، ص ٢٩ .

(٢)- المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٣١٩ .

(٣)- لباب التأويل جـ ٢ ، ص ٢٩١ .

(٤)- سورة الأنبياء آية ٤٤ .

(٥)- سورة فصلت آية ٤٤ .

(٦)- تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٤ ، ص ١٠٤ .

(٧)- حاشية الشهاب جـ ٥ ، ص ٢٤٧ .

﴿نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بقهر أهلها والغلبة عليها من أطرافها وجوانبها وهم لا يعتبرون بما يرون من ذلك " . (١)

خامساً: معنى الأطراف اللغوي يؤيد المعنى الراجح وذلك أن الأطراف في اللغة النواحي:

قال الأزهري : (٢)

" أطراف الأرض نواحيها ومنه قول الله عز وجل " أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها " . أي من نواحيها ناحية ناحية وهذا على من فسر نقصها من أطرافها فتوح الأرضين وأما من جعل نقصها من أطرافها موت علمائها فهو من غير هذا والتفسير على القول الأول " . (٣)

ومن هنا نخلص إلى صواب رأي الآلوسي وإليه مال الزجاج (٤) وأبو حيان (٥) والطبري (٦) والرازي (٧)

قال الواحدى :

" اللائق بهذا الوضع هو هذا الوجه أو لم يروا ما يحدث في الدنيا من الاختلافات خراب بعد عمارة ، وموت بعد حياة ، وذل بعد عز ، ونقص بعد كمال ، وإذا كانت هذه التغيرات مشاهدة محسوسة فما الذي يؤمنهم من أن يقلب الله الأمر على هؤلاء الكفرة فيجعلهم ذليلين بعد أن كانوا عزيزين ويجعلهم مقهورين بعد أن كانوا قاهرين وعلى هذا الوجه فيحسن اتصال هذا الكلام بما قبله " . (٨)

ولا مانع عندي والله أعلم أن كل ما ذكر يدخل في لفظ الآية وجملة معنى هذه الآية الموعظة وضرب المثل .

---

(١)- جامع البيان للطبري جـ ٨، ص ٢٢٨ .

(٢)- الأزهري : هو أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري اللغو ي المشهور ولد سنة اثنين وثمانية ومائتين كانت له تصانيف عديدة منها (التهذيب في اللغة " شرح أبي تمام " وغير ذلك توفي سنة سبعين وثلاثمائة (انظر: وفيات الأعيان جـ ٤ ، ص ٣٣٤) .

(٣)- تهذيب اللغة للأزهري جـ ١٣ ، ص ٣٢٠ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط المؤسسة العامة للنشر .

(٤)- معاني القرآن للزجاج جـ ٣ ، ص ١٥١ .

(٥)- البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٤٠١ .

(٦)- مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٣٨٨ .

(٧)- مفاتيح الغيب جـ ١٩ ، ص ٥٤ .

(٨)- المصدر السابق .

المسألة الرابعة والعشرون
المراد بأيام الله نعمه وبلاؤه
في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [١]

قال الآلوسي رحمه الله :

"وذكرهم بأيام الله " أي بنعمائه وبلائه كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما[٢] واختاره الطبري لأنه الأنسب بالمقام الأوفق بما سيأتي إن شاء الله تعالى من الكلام [٣] وعن ابن عباس أيضاً والربيع ومقاتل وابن زيد المراد بأيام الله وقعائه سبحانه ونقماته في الأمم الخالية ، ومن ذلك أيام العرب لحروبها وملاحمها كيوم ذي قار ، ويوم الفجار وغيرها[٤] واستظهره الزمخشري للغلبة العرفية وأن العرب استعملته للوقائع[٥]

---

(١)- سورة إبراهيم الآية ٥.

(٢)- نسبه إلى ابن عباس القرطبي في جامع الأحكام جـ ٩ ، ص ٣٤٢ ، وأبو حيان في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٤٠٩ ،والزمخشري في الكشاف جـ ٢ ، ص ٢٩٤ ، والنيسابوري في غرائب القرآن جـ ٤، ص ١٧٣ ، ونسبه إلى أبي مسلم الطبرسي في مجمع البيان جـ ٥، ص٣٩٣ وبدون نسبة في لباب التأويل جـ ٣ ،ص ٣٣،وإرشاد العقل السليم جـ ٥، ص ٣٢ .

(٣)- انظر جامع البيان للطبري جـ ٨ ، ص ٢٣٩ .

(٤)- نسبه إلى ابن عباس ومقاتل وابن زيد أبي حيان في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٤٠٩ ، والقرطبي في الجامع للأحكام جـ ٩ ، ص ٣٤٢ ، ونسبه إلى ابن زيد وابن السائب ومقاتل ابن الجوزى في زاد المسير جـ ٤ ، ص ٢٤٦ ، ونسبه إلى ابن زيد والبلخي الطبرسي في مجمع البيان جـ٥ ،ص ٣٩٣ ، ونسبه إلى مقاتل البغوي في معالم التنزيل جـ ٣ ، ص ٢٦ ، وابن عادل في اللباب جـ ١١ ، ص ٣٤١ ونسبه إلى الربيع السيوطي في الدر المنثور جـ ٨، ص ٤٨٩ ، والشوكاني في فتح القدير جـ ٣ ، ص ١٣٥ ، وصديق خان في فتح البيان جـ ٣ ، ص ٥٢٧.

(٥)- انظر الكشاف للزمخشري جـ ٢ ، ص ٢٩٤ ،

وأخرج النسائي[١] والبيهقي[٢] في شعب الإيمان وغيرهم عن أبي بن كعب[٣] عن النبي ﷺ أنه فسر الأيام في الآية بنعم الله تعالى وآلائه[٤] وروى ذلك ابن المنذر عن ابن عباس ومجاهد[٥] وأنت تعلم أنه إن صح الحديث فعليه الفتوى ، نعم إن قوله تعالى " اذكروا نعمة الله عليكم " ، ظاهر في تفسير الأيام بالنعم وما يستدعي غير ذلك ستسمع فيه أقوالاً لا يستدعيه على بعضها[٦] .

---

(١)- الإمام النسائي : الإمام الحافظ الثبت ، ناقد الحديث أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر الخرساني النسائي ، صاحب السنن ، ولد بنسا في سنة خمس عشرة ومائتين ، سمع من إسحاق بن راهوية والكثيرين من غيره ، وقال الذهبي : هو أحفظ من مسلم بن الحجاج ، مات سنة ثلاث وثلاثمائة وله ثمان وثمانون سنة (انظر: سير أعلام النبلاء جـ ١٤، ص ١٢٥ ، والكاشف للذهبي جـ ١ ، ص ١٩٥) .

(٢)- البيهقي هو : أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخرساني البيهقي ، الحافظ العلامة الثبت ، الفقيه ، شيخ الإسلام ، صاحب التصانيف النافعة ، منها السنن الكبرى ، والسنن والآثار ، والأسماء والصفات ، والاعتقاد والبعث وغيرها ، توفى سنة ٤٥٨ هـ . سير أعلام النبلاء جـ ١٨ ، ص ١٦٣ .

(٣)-أبي بن كعب : بن قيس الأنصاري ، أبو المنذر ، سيد القراء ، كان من أصحاب العقبة الثانية وشهد بدراً والمشاهد كلها ، توفي سنة ثلاثين ، وقيل غير ذلك (انظر: الإصابة جـ ١ ، ص ٢٦) .

(٤)-أخرجه النسائي في سننه جـ ٦ ، ص ٣٧١ كتاب التفسير ، تحقيق صدقي جميل العطار ، ط دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م ، والبيهقي في شعب الايمان جـ ٤ ، ص ١٠٢ باب تعديد نعم الله عز وجل وشكرها ، تحقيق محمد السعيد بسيونى ، ط دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولي ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

(٥)- نسبه إلى ابن عباس ومجاهد وقتادة وأبي بن كعب القرطبي في الجامع جـ ٩ ، ص ٣٤١ ، وأبو حيان في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٤٠٩ ، والخازن في لباب التأويل جـ ٣ ، ص ٣٣ ، وابن عادل في اللباب جـ ١١ ، ص ٣٤١ ، وزاد الطبري سعيد بن جبير في الجامع جـ ٨ ، ص ٢٤٠ ، وزاد الطبرسي الحسن في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٣٩٣ ، وابن حاتم في مسنده جـ ٧ ، ص ٢٢٣٥ ، وزاد ابن الجوزى ابن قتيبة في زاد المسير جـ ٤، ص ٣٤٦ ، ونسبه إلى أبي بن كعب وابن عباس ومجاهد السيوطي في الدر المنثور جـ ٨ ، ص ٤٨٩ ، ونسبه إلى مجاهد وقتادة الماوردي في النكت والعيون جـ ٣ ، ص ١٢٢ ، والبغوي في معالم التنزيل جـ ٣ ، ص ٢٦ ، وابن كثير في تفسيره جـ ٤ ، ١٠٩ ونسبه إلى ابن عباس الشهاب في حاشيته جـ ٥ ، ص ٢٥٢ ، ونسبه إلى ابن عباس وأبي بن كعب صديق خان في فتح البيان جـ ٣، ص ٥٢٧ .

(٦)- روح المعاني جـ ٨، ص ٢٧٠ .

المعنى الإجمالي للآية :

أمر الله تعالى موسى في هذه الآية بشيئين : أحدهما أن يخرج قومه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وثانيهما : أن يذكرهم بأيام الله وأن يعظهم بالترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، فالترغيب والوعد أن يذكرهم جميع ما أنعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن أمنوا بالرسل فيما سلف من الأيام ، والترهيب والوعيد أن يذكرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ممن كذب رسله فيما سلف من الأيام مثل ما أنزل بعاد وثمود وغيرهما . (١)

دراسة النص :

نلاحظ في هذا النص أن الإمام الآلوسي ذكر بعض الأقوال في المراد بأيام الله وهم كالآتي :

القول الأول : المراد بأيام الله نعماؤه وبلائه .

القول الثاني : المراد بها وقائعه سبحانه ونقماته .

القول الثالث : المراد بها نعم الله وآلائه .

وقد قوى القول الأخير على غيره معتمداً على أنه مروي عن رسول الله ﷺ غير أن الإمام أصاب في هذا الترجيح أجراً واحداً لأن الحديث الذي أورده واعتمد عليه في الترجيح سنده واهٍ لأن هذه الرواية عن أبي بن كعب في سندها محمد بن أبان بن صالح القرشي ويقال له الجعفي الكوفي ضعفه أبو داود وابن معين ، وقال البخاري في التاريخ يتكلمون في حفظه لا يعتمد عليه ، وقال ابن أبي حاتم سألت أبي عنه فقال ليس هو بقوي في الحديث يكتب حديثه على المجاز ولا يحتج به (٢) وعلى هذا فالراجح في هذه المسألة والله أعلم أن المراد بأيام الله نعماؤه وبلاءه ، عملاً بالقاعدتين الآتيتين :

(إذا ثبت الحديث وكان نصاً في تفسير الآية فلا يصار إلى غيره)

(إدخال الكلام في معاني ما قبله وما بعده أولى من الخروج به عنهما إلا بدليل يجب التسليم له) .

وهو الراجح لما يأتي :

أولاً : ورود ذلك نصاً عن رسول الله ﷺ في تفسير أيام الله بنعمائه وبلائه .

فقد أخرج مسلم من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال : سمعت رسول الله ﷺ وسلم يقول" **إنه بينما موسى عليه السلام في قومه يذكرهم بأيام الله وأيام الله نعماؤه وبلاؤه** " . (٣)

ثانياً : أن تفسيرها بما يعم المعنيين أولى لأن التذكير يقع بالوجهين جمعياً ، بالنعم والبلاء ، بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ، فالترغيب والوعد أن يذكرهم ما أنعم الله عليهم حين أنجاهم من آل فرعون بعد ما كانوا في العذاب المهين وغرق عدوهم فرعون وقومه ، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وإنزال المن والسلوى

---

(١)- انظر حاشية محي الدين زاده جـ ٥، ص ١٤١ .

(٢)- انظر ميزان الاعتدال للذهبي جـ ٤ ، ص ٢٧٧٣ ولسان الميزان للحافظ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن حجر العسقلاني جـ٥ ، ص ٣٨ ، ط دار الفكر ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

(٣)- صحيح مسلم كتاب الفضائل باب من فضائل الخضر عليه السلام جـ ٤، ص ١٨٥٠.

وتظليل الغمام ، والترهيب والوعيد أن يذكرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ممن كذب الرسل ممن سلف من الأمم مثل ما نزل بعادٍ وثمود . (١)

فالتخويف يبعث النفس على تحمل معاكسة هواها خيفة الوقوع في سوء العاقبة ، والإنعام يبعث النفس على الشكر. (٢)

ثالثاً : تفسيرها بنعمائه وبلائه هو المناسب لما بعده ولما قبله أيضاً كما ينبيء عنه قوله " اذكروا نعمة الله عليكم " لكن لا بما جرى عليهم فقط بل عليهم وعلى من قبلهم من الأمم في الأيام الخالية حسبما ينبيء عنه قوله تعالى ﴿ **أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ (٣)

رابعاً : مما يؤيد القول الذي دمجناه الجمع بين صفتي الصبار والشكور في آخر الآية في قوله تعالى " إنّ في ذلك لآيات لكل صبار شكور " فهما مشعرتان بأن أيام الله المراد بها بلاؤه ونعماؤه أي صبار على بلائه ، شكور لنعمائه ، فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم أو بما أفاض عليهم من النعم تنبيه على ما يجب عليه من الصبر إذا أصابه بلاء ، والشكر إذا أصابته نعماء وخص الصبار والشكور لأنهما هم اللذان ينتفعان بالتذكير والتنبيه ويتعظان به . (٤)

قال ابن عطية :

" ولفظة الأيام تعم المعنيين لأن التذكير يقع بالوجهين جميعاً " . (٥)

وبهذا نخلص إلى صواب اختيار الإمام الآلوسي فالحق أن أيام الله تعالى تعم أيام الشدائد ، وأيام النعم ، وإليه مال أبو حيان (٦) والزجاج (٧) وأبو السعود (٨) والطبري (٩)

---

(١)- اللباب جـ ١١، ص ٣٤١ .

(٢)- التحرير والتنوير جـ ١٣، ص ١٩١ .

(٣)- إرشاد العقل السليم جـ ٥، ص ٣٣ .

(٤)- البحر المحيط جـ ٦٣، ص ٤١٠ .

(٥)- المحرر الوجيز جـ ٣، ص ٣٢٤ .

(٦)- البحر المحيط جـ ٦، ص ٤١٠ .

(٧)- معاني القرآن للزجاج جـ ١٣، ص ١٩١ .

(٨)- إرشاد العقل السليم جـ ٥، ص ٣٣ .

(٩)- جامع البيان جـ ٨، ص ٢٣٩ .

obeikandl.com

المسألة الخامسة والعشرون
الشجرة الطيبة هي النخلة

في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (١)

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

المراد بالشجرة المشبه بها النخلة عند الأكثرين ، وروي ذلك عن ابن عباس ، وابن مسعود (٢) ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، وابن زيد (٣) وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنها شجرة جوز الهند (٤) وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه رضي الله تعالى عنه أيضاً أنها شجرة في الجنة (٥) وقيل كل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة

---

(١)- سورة إبراهيم الآية ٢٤ .

(٢)- ابن مسعود : هو عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي الإمام الحبر فقيه الأمة من السابقين الأولين إلى الإسلام ، هاجر الهجرتين ، وشهد بدراً والمشاهد بعدها ، ولازم النبي وكان صاحب نعليه ، حدث عن النبي بالكثير وعن جماعة من أصحاب رسول الله ، مات بالمدينة سنة اثنين وثلاثين ، ودفع بالبقيع (انظر: الاصابة جـ ١، ص ٢٣٤، وسير أعلام النبلاء جـ ١ ، ص٤٦١) .

(٣)- زاد الطبري نسبته إلى أنس ومسروق وقتادة في جامع البيان جـ ٨، ص ٢٦٩ ، وزاد ابن عطية أنس وقتادة في المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٣٣٥ ،وزاد أبو حيان أنس في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٤٣١ ونسبه القرطبي إلى مجاهد وعكرمة في الجامع للأحكام جـ ٩ ، ص ٣٥٩ ونسبه النيسابوري إلى ابن عمر في غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ١٩٠ ، ونسبه السيوطي إلى أنس وابن عباس وعكرمة في الدر المنثور جـ ٨ ، ص ٥١٣ ونسبه إلى عكرمة وابن عباس ابن أبي حاتم في مسنده جـ ٧ ، ص ٢٢٤٣ ونسبه إلى ابن عمر وأنس الماوردي في النكت والعيون جـ ٣ ، ص ١٣٢ ، ونسبه إلى أنس الطبرسي في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٤٠٤ ، والطوسي في التبيان جـ ٦ ، ص ٢٩١ ، والخطيب الشربيني في السراج المنير جـ ٢ ، ص ١٧٩ ، والخازن في لبا ب التأويل جـ ٣ ، ص ٤٠ .

(٤)- نسبه إلى علي وابن عباس أبو حيان في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٤٣١، وإلى علي بن أبي طالب القرطبي في جامع الأحكام جـ ٩ ، ص ٣٥٩ ، وبدون نسبة في الميزان جـ ١١ ، ص ٤٩ .

(٥)- انظر جامع البيان جـ ٨ ، ص ٢٦٩ ، وتفسير ابن أبي حاتم جـ ٧ ، ص ٢٢٤٤ ، ونسبه إلى ابن عباس أيضاً كلاً من : أبي حيان في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٤٣١ ، والزمخشري في الكشاف جـ ٢ ، ص ٣٠١ ، والطبرسي في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٤٠٤ ، وابن الجوزي في زاد المسير جـ ٤ ، ص ٣٥٨ والنيسابوري في غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ١٩٠ ، والقرطبي في جامع الأحكام جـ ٩ ، ص ٣٥٩ ، والخازن في لباب التأويل جـ ٣ ، ص ٤٠ ، وابن عادل في اللباب جـ ١١ ، ص ٣٧٨ .

وشجرة التين والعنب والرمان وغير ذلك [١] وأنت تعلم أنه إذا صح الحديث ولم يتأت حمل ما فيه على التمثيل لا ينبغي العدول عنه. [٢]

المعنى الإجمالي للآية :

ضرب الله عز وجل للإيمان به مثلاً ، فجعل مثل المؤمن في نطقه بتوحيده والإيمان بنبيه وإتباع شريعته ، كالشجرة الطيبة ، فجعل نفع الإقامة على توحيده كنفع الشجرة الطيبة التي لا ينقطع نفعها وثمرها ، فهي تعطي ثمرها كل وقت وقته الله لأثمارها وينتفع بها في كل وقت ليلاً أو نهاراً صيفاً أو شتاءً ويمثل الله الأمثال للناس ويشبه لهم الأشياء ليتذكروا حجة الله عليهم فيعتبروا بها ويتعظوا ، فينزجروا عماهم عليه من الكفر به إلى الإيمان . [٣]

دراسة النص :

الناظر إلى هذا النص يرى أن الإمام الآلوسي حكى المراد بالشجرة الطيبة في الآية على أربعة أقوال :

القول الأول : المراد بالشجرة الطيبة النخلة .

القول الثاني : المراد بها شجرة جوز الهند .

القول الثالث : المراد بها كل شجرة مثمرة طيبة الثمار كالنخلة وشجرة التين .

وقد رجح الآلوسي أن المراد بالشجرة الطيبة النخلة وقد أصاب الإمام في هذا الترجيح لتقويه بالقاعدة التفسيرية :

(إذا ثبت الحديث وكان نصاً في تفسير الآية فلا يصار إلى غيره)

وهو الراجح لما يأتي :

ورود الأحاديث الصحيحة في بيان أن الشجرة الطيبة النخلة وإذا كان ما ثبت عن النبي ﷺ وارداً مورد التفسير والبيان للآية وجب تقديمه إذ هو أعلى ما يقال ولا يبقى لأحد معه مقال منها :

١- ما رواه البخاري [٤] عن ابن عمر رضي الله عنهما قال **" كنا عند رسول الله ﷺ فقال أخبروني بشجرة تشبه أو كالرجل المسلم لا يتحات ورقها ولا ولا ولا ،تؤتي**

---

(١)- بدون نسبة في الكشاف جـ ٢ ، ص ٣٠١ ، والبحر المحيط جـ ٦ ، ص ٤٣١، والمحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٣٣٥ ، وغرائب القرآن جـ ٤ ، ص ١٩٠ .

(٢)- روح المعاني جـ ٨ ، ص ٣٠٩ .

(٣)- انظر :معاني القرآن للزجاج جـ ٣ ، ص ١٦٠ ، وجامع البيان للطبري جـ ٨ ، ص ٢٦٦ ، وغرائب القرآن للنيسابوري جـ ٤ ، ص ١٩١ .

(٤)- البخاري : أبو عبد الله البخاري محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بردذربة ، ولد يوم الجمعة بعد الصلاة من شوال سنة أربع وتسعين ومائة ، ومات سنة ست وخمسين ومائتين عن عمر غزير بالمؤلفات العظيمة التي في مقدمتها كتاب صحيح البخاري ، والأدب المفرد ، وغيرهما من الكتب العظيمة ، رحل في الحديث ومهر فيه وأبصر ، قال ابن خزيمة : ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بحديث رسول الله ولا أحفظ من البخاري (انظر : سير أعلام النبلاء جـ ١٢ ، ص ٣٩١ .، وتهذيب الكمال جـ ٢٤ ص ٤١٣ ، وتاريخ بغداد جـ ٢ ، ص ٦) .

أكلها كل حين ، قال ابن عمر فوقع في نفسي أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم ، فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله هي النخلة ". (١)

٢ – وما رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ **" إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي ؟ فوقع الناس في شجر البوادي ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت ثم قالوا : حدثنا ما هي يا رسول الله : قال هي النخلة ".** (٢) .

٣- ما رواه الحاكم وصححه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : **" أتي رسول الله ﷺ بقناع من بسر فقرأ مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة قال : هي النخلة ".** (٣)

ومتي ثبت الحديث وصح عن رسول الله فلا يعدل عنه إلى غيره ولا يقبل قول يخالف حديثه ﷺ .

وعليه فقد تبين صواب ترجيح الإمام الآلوسي وإليه مال :

الإمام الطبري حديث قال :

" وأولى الأقوال بالصواب في ذلك قول من قال : " هي النخلة " لصحة الخبر عن رسول الله " . (٤)

قال العلماء ووجه الحكمة في تمثيل هذه الكلمة التي هي كلمة الإخلاص وأصل الإيمان بالنخلة حاصل من أوجه :

أحدها : أن كلمة الإخلاص شديدة الثبوت في قلب المؤمن كثبوت أصل النخلة في الأرض .

الوجه الثاني : أن هذه الكلمة ترفع عمل المؤمن إلى السماء كما قال تعالى إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، وكذلك فرع النخلة الذي هو عال في السماء .

الوجه الثالث : أن ثمر النخلة يأتي في كل حين ووقت وكذلك ما يكسبه المؤمن من الأعمال الصالحة في كل وقت وحين ببركة هذه الكلمة فالمؤمن كلما قال لا إله إلا الله صعدت إلى السماء وجاءت بركتها وثوابها وخيرها ومنفعتها .

الوجه الرابع : في وجه الحكمة في تمثيل الإيمان بالشجر على الإطلاق لأن الشجرة لا تسمى شجرة إلا بثلاثة أشياء عرق راسخ وأصل ثابت وفرع قائم وكذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالأبدان. (٥)

---

(١)- فتح الباري شرح صحيح البخاري جـ ٨ ، ص ٢٢٨ كتاب التفسير (سورة إبراهيم) باب كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء حديث رقم ٤٦٩٨ .

(٢)- صحيح مسلم جـ ٤ ، ص ٢١٦٥ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم حديث رقم ٢٨١١ ، وانظر : سنن الترمذي جـ ٤ ، ص ٣٩٦ كتاب الأمثال باب ما جاء في مثل المؤمن القارئ للقرآن وغير القارئ حديث رقم ٢٨٧٦قال أبو عيسي حديث حسن صحيح .

(٣)- مستدرك الحاكم جـ ٢ ، ص ٣٥٢ كتاب التفسير قال عنه : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

(٤)- جامع البيان للطبري جـ ٨ ، ص٢٧٠ .

(٥)- انظر : لباب التأويل للخازن جـ ٣ ، ص٤١.

المسالة السادسة والعشرون
حمل الأبوين على ظاهر اللفظ

في قوله تعالي: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ ﴾ (١)

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

"ولوالدي " أي لأمي وأبي وكانت أمه على ما روي عن الحسن مؤمنة (٢) فلا إشكال في الاستغفار لها ، وأما استغفاره لأبيه فقد قيل في الاعتذار عنه أنه كان قبل أن يتبين له أنه عدو لله سبحانه والله تعالى قد حكى ما قاله عليه السلام في أحايين مختلفة ، وقيل إنه عليه السلام نوى شرطية الإسلام والتوبة إليه ذهب الخازن (٣) وقيل : أراد بوالده نوحاً عليه السلام (٤) وقيل : أراد بوالده آدم وبوالدته حواء عليهما السلام (٥) والوجه ما تقدم . (٦)

المعنى الإجمالي للآية :

كان إبراهيم عليه السلام متجهاً دائماً إلى مقام الربوبية فنادى ربه بالربوبية ، ودعاه بالمغفرة ، وإبتدأ بنفسه أولاً ، ثم ثنى بوالديه ، وثلث بالمؤمنين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ، سواء أكانوا من ذريته أم كانوا من غيرهم ، فهو دعاء لعامة المؤمنين ، وإبراهيم عليه السلام كانت أدعيته العامة جماعية ، لأنه نادى بالأخوة الإنسانية وطلب الغفران يوم يقوم الحساب فهو يطلب من الله في هذا اليوم عفوه وتغليب مغفرته . (٧)

دراسة النص :

نلاحظ في هذا النص أن الإمام الآلوسي ذكر أقوال أهل العلم في المراد بأبوي إبراهيم عليه السلام على ثلاثة أقوال :

القول الأول : أن المراد أبوه وأمه حقيقة وكانت أمه مؤمنة وأبوه كافراً .

---

(١)- سورة إبراهيم الآية ٤١ .

(٢)- هو قول الحسن في مجمع البيان جـ ٥ ، ص٤١٣ ، وحاشية الشهاب جـ ٥ ، ص ٢٧٤ ، ونسبه إلى القشيري القرطبي في الجامع جـ ٩ ، ص ٣٧٥ ،وبدون نسبة في الجواهر جـ ٢ ص ٢٠١ ، وفتح البيان جـ ٣ ، ص ٥٥٦ ، واللباب جـ ١١ ، ص٤٠٤ .

(٣)- لباب التأويل للخازن جـ ٣ ، ص٥٠.

(٤)- بدون نسبه إلي المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص٣٤٣ ، والبحر المحيط جـ ٦ ، ص٤٥٠ ..

(٥)- بدون نسبة في زاد المسير جـ ٤ ، ص ٣٦٩ ، ولباب التأويل جـ ٣ ، ص٥٠ ، وغرائب القرآن جـ ٤ ، ص٢٠١ ، وفتح القدير جـ ٣ ، ص ١٦١ ، والجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ٢٠١ ، ومفاتيح الغيب جـ ١٩ ، ص ١١٠ ، والكشاف جـ ٢ ، ص ٣٠٦ ، ومعاني الزجاج جـ ٣ ، ص ١٦٥ ، وإرشاد العقل السليم جـ ٥ ، ص ٥٥ ، وفتح البيان جـ ٣ ، ص ٥٥٦ ، واللباب جـ ١١ ص ٤٠٤ ، والبحر المحيط جـ ٦ ، ص ٤٥٠ والمحرر الوجيز جـ ٣ ص ٣٤٣ .

(٦)- روح المعاني جـ ٧ ، ص ٣٥٢.

(٧)- زهرة التفاسير جـ ٨ ، ص ٤٠٤٥ .

obeikandl.com

القول الثاني : أراد بوالده نوح عليه السلام .

القول الثالث : أراد بوالده آدم وبوالدته حواء عليهما السلام .

ثم مال إلى القول بأنهما أبوه وأمه حقيقة والإمام في هذا الاختيار معتمداً على قاعدة :

(عدم جواز العدول عن ظاهر القرآن إلا بدليل يجب الرجوع إليه)

والظاهر المتبادر إلى الذهن من كلمة والدين أنهما الأب والأم حقيقة ، وهذا هو الغالب المستعمل في كلام الناس والمتعارف بينهم .

وقد ذكر الآلوسي عذر إبراهيم في إستغفاره لأبيه وهو كافر في أن هذا الاستغفار منه عليه السلام إنما كان قبل تبين الأمر له عليه السلام وقبل أن يعلم أنه عدو لله فلما علم ذلك تبرأ منه .

قال أبو حيان :

" والظاهر أن إبراهيم سأل المغفرة لأبويه القريبين وكانت أمه مؤمنة وكان والده لم ييأس من إيمانه ولم تتبين له عداوة الله وهذا يتمشى إذا قلنا أن هذه الأدعية كانت في أوقات مختلفة وهذا القول هو الأظهر" . (١)

كذلك جاز أن يستغفر لأبيه وكان كافراً وهذا من مجوزات العقل لا يعلم امتناع جوازه إلا بالتوقيف فلعله لم يجد منه منعاً فظنه كونه جائزاً . (٢)

قال النيسابوري :

" الصحيح أنه استغفر له بناء على الجواز العقلي والمنع التوقيفي بعد ذلك لا ينافيه " . (٣)

وكذلك إبراهيم رجل الفطرة المستقيمة ، ففطرته الإنسانية المستقيمة دفعته لأن يكبر عليه أن يهتدي وأبوه مشرك ، وأن يعبد الله وأبوه يعبد الشيطان ، وأن يكون في الجنة وأبوه في النار ، وقد بدأ ذلك في مجاوبته إذ قال لأبيه ﴿ **يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً** ﴾ إلى قوله: ﴿ **يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِياً** ﴾ (٤)

فإبراهيم عليه السلام تتمثل فيه الفطرة القويمة .

---

(١)- البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٤٥٠ .

(٢)- انظر الكشاف جـ ٢ ، ص ٣٠٦ ، ومفاتيح الغيب جـ ١٩ ، ص

(٣)- غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٢٠١ .

(٤)- سورة مريم الآيات ٤٢ : ٤٥ .

المسألة السابعة والعشرون
الضمير للذكر

في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١)

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

" وإنا له لحافظون " ضمير له للذكر وإليه ذهب مجاهد وقتادة والأكثرون (٢) وهو الظاهر ، وجوز الفراء أن يكون راجعاً إلى النبي ﷺ (٣) أي وإنا للنبي الذي انزل عليه الذكر لحافظون من مكر المستهزئين كقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (٤) والمعول عليه الأول . (٥)

---

(١)- سورة الحجر الآية ٩ .

(٢)- نسبه إلى مجاهد وقتادة الطبري في جامع البيان جـ ١٤ ، ص ١٢ ، وابن أبي حاتم في مسنده جـ ٧ ، ص ٢٢٥٨ والسيوطي في الدر المنثور جـ ٨ ، ص ٥٩٤ ، وابن عطية في المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٣٥٢ ، وأبي حيان في البحر جـ ٦ ، ص ٤٦٨ ، ونسبه إلى قتادة وابن عباس الطبرسي في مجمع البيان جـ ٥ ، ٤٢٨ ، ونسبه إلى مجاهد الثعالبي في الجواهر جـ ٢ ، ص ٢٠٦ ، والشوكاني في فتح القدير جـ ٣ ، ص ١٧٦، ونسبه إلى قتادة ابن الجوزي في زاد المسير جـ ٤ ، ٣٨٤ والواحدي في الوسيط جـ ٣ ، ص ٤٠ ، وبدون نسبة في الجامع للقرطبي جـ ١٠ ، ص ٦ ، وإرشاد العقل السليم جـ ٥ ، ص ٦٩ ، وغرائب القرآن جـ ٤ ، ٢١١ ، واللباب جـ ١١ ، ص ٤٣٢ ، ومفاتيح الغيب جـ ١٩ ص ١٢٧ ، ولباب التأويل جـ ٣ ، ص ٥٧ ، وحاشية الشهاب جـ ٥ ، ص ٢٨٤ ، والكشاف جـ ٢ ، ص ٣١١ ، وحاشية زاده جـ ٥ ، ص١٩٧ ، وأضواء البيان جـ ٣ ، ص ١٢٠ ، والدر المصون جـ ٤ ص ٢٨٩ والبغوي في معالم التنزيل جـ ٣ ، ص ٤٤ ، والماوردي في النكت والعيون جـ ٣ ، ص ١٤٩ .

(٣)- انظر : معاني القرآن للفراء جـ ٢ ، ص ٨٥ ، ونسبه إلى الفراء وابن الأنباري الرازي في مفاتيح الغيب جـ ١٩ ، ص ١٢٧ ، وابن عادل في اللباب جـ ١١ ، ص٤٣٢ ، ونسبه إلى ابن السائب ومقاتل الخازن في لباب التأويل جـ ٣ ، ص ٥٧ ، وابن الجوزي في زاد المسير جـ ٤ ، ص ٣٨٤ ، ونسبه إلى الفراء الطبرسي في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٤٢٨ ، و بدون نسبة في جامع البيان جـ ١٤ ، ص ١٢ ، والكشاف جـ ٢ ، ص ٣١١ ، والمحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٣٥٢ ، وغرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٢١١ ، والجامع للقرطبي جـ ١٠ ، ص ٦ والدر المصون جـ ٤ ، ص٢٨٩ ، وإرشاد العقل السليم جـ ٥ ، ص ٦٩ ، وأضواء البيان جـ ٣ ،ص ١٢٠ وحاشية زاده جـ ٥ ، ص ١٩٧ ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٤ ، ص ١٥٤ ، والنكت والعيون جـ ٣ ، ص ١٤٩ ، ومعالم التنزيل جـ ٣ ، ص ٤٤ .

(٤)- سورة المائدة آية ٦٧ .

(٥)- روح المعاني جـ ٨ و ص ٢٥ .

المعنى الإجمالي للآية :

تأتي هذه الآية في مقام الرد على هؤلاء المستهزئين لإنكارهم التنزيل واستهزائهم برسول الله ﷺ أي نحن بعظم شأننا وعلو جانبنا نزلنا ذلك الذكر الذي أنكروه وأنكروا نزوله عليك ونسبوك بذلك إلى الجنون وإنا حافظون له من كل ما لا يليق به من التحريف والزيادة والنقصان وجميع ما يقدح فيه من الطعن فيه. (١)

دراسة النص :

الناظر إلى هذا النص يرى أن الإمام الآلوسي حكى قولي أهل العلم في عود الضمير في له وهما ما يلي :

القول الأول : أن ضمير له للذكر .

القول الثاني : أن الضمير للنبي ﷺ .

ثم صوب القول بعوده على الذكر وقد أصاب الإمام الآلوسي في هذا الترجيح لتقويه بالقاعدتين الآتيتين :

(الأصل إعادة الضمير إلي أقرب مذكور ما لم يرد دليل بخلافه)

(إعادة الضمير إلى المحدث عنه أولى من إعادته إلى غيره)

وما رجحه الآلوسي هو الراجح لما يأتي :

أولاً : أن مرجع الضمير إلى الذكر أصح لأنه أشبه بظاهر التنزيل ورد الكناية إلى أقرب مذكور أولى وهو الذكر .

ثانياً : أن ذلك من جملة إعجاز القرآن وصدقه أنه سبحانه وتعالى أخبر عن بقائه محفوظاً عن التغيير والتحريف وكان كما أخبر بعد كل تلك المدة ، فلم يبق للموحد شك في إعجازه وقد تميز القرآن عن غيره من الكتب بأن أعداداً غفيرة من المسلمين تحفظه عن ظهر قلب وتتوارث حفظه خلفاً عن سلف وقد ألهم الله المسلمين بكتابته في حياة الرسول ﷺ وتكرر جمعه في مصحف في عهد أبي بكر ، وكتابته على لهجة واحدة في عهد عثمان ، ومن حفظ الله تعالى لكتابته مرور عصور طويلة من الظلام ضعف فيها شأن المسلمين وانحسر سلطانهم وظل القرآن الكريم محفوظاً في الصدور مكتوباً في السطور متلواً على الألسنة .

قال الخطابي : (٢)

" إنما لم يجمع ﷺ القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود الناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة " . (٣)

---

(١)- إرشاد العقل السليم لأبي السعود جـ ٥ ، ص ٦٩ بتصرف .

(٢)- الخطابي هو : أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي ،الإمام العلامة الحافظ اللغوي ، صاحب التصانيف ، أخذ الفقه على مذهب الشافعي عن القفال ، له : شرح الأسماء الحسني ، والغنية عن الكلام وأهله ، ومعالم السنن وغيرها ، وتوفي سنة ٣٨٨ هـ (إنظر : سير أعلام النبلاء جـ ١٧ ، ص ٢٣ .)

(٣)- الإتقان للسيوطي جـ ١ ، ص ١٦٤ .

ثالثا : في تولي حفظ الله له دلالة علي أنه منزل من عنده وهذا ما يستدعيه المقام فإنهم كانوا دائما يشككون في نزوله عليه من عند الله إذا لو كان من البشر لتطرق إليه الزيادة والنقصان .

أخرج مسلم عن عياض بن حَمِار المجاشعي [١] عن النبي ﷺ عن ربه تعالى " **وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء** " [٢] ومعناه أنه محفوظ في الصدور لا يتطرق إليه الذهاب بل يبقى على ممر الأزمان [٣] وقد حفظه الله تعالى كما وعد من التغيير والتبديل فأوجب حفظه مرتلاً كما قال تعالى : ﴿ **وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً** ﴾ [٤] وقال ﴿ **وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً** ﴾ [٥] وقد علم النبي ﷺ صحابته ترتيل القرآن وعلموه من بعدهم واقتضى ذلك أن يعتمد في حفظ القرآن علي الصدور ولا يكون الاعتماد على السطور وحدها .

وإنما يحفظه بقرائه فقلوب القراء خزائن كتابه وهو لا يضيع كتابه . [٦]

رابعاً : هناك آيات تشهد بأن الله هو المتولي لحفظ القرآن فقال تعالى : ﴿ **وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [٧]

وقوله: ﴿ **لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** ﴾ إلى قوله:﴿ **ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** ﴾ [٨]

وفي قوله بأنه المنزل له إشارة إلى أن الجملة الثانية مقررة للأولى لأنها كالدليل عليها لكن لتضمنها معنى زائداً عطفت عليها . [٩]

خامساً : هذا القول الذي رجحه الآلوسي مال إليه جمع من المفسرين وقالوا به :

---

(١)- عياض بن حمار هو : عياض بن حمار بن مجاشع التميمي المجاشعي ، سكن البصرة ، روى عن النبي وروى عنه مطرف ويزيد ابنا عبد الله والحسن البصري وغيرهم ، وكان إذا قدم مكة لا يطوف ، إلا في ثياب رسول الله ﷺ لأنه كان من الجملة الذين لا يطوفون إلا في ثوب أحمسي . الإصابة جـ ٥ ، ص ٤٨ ، و أسد الغابة جـ ٤ ، ص ٢٢ ، و تهذيب التهذيب جـ ٨ ، ص ١٧٩ .

(٢)- أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار جـ ٤ ، ص ٢١٩٧ حديث رقم ٢٨٦٥ .

(٣)- صحيح مسلم بشرح الإمام أبي زكريا يحي بن شرف النووي الدمشقي المتوفى ٦٧٦ هـ ضبطه صدقي جميل العطار، جـ ٩ ، ص ١٦٧ ، ط دار الفكر ، بيروت ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

(٤)- سورة الفرقان آية ٣٢ .

(٥)- سورة المزمل آية ٤ .

(٦)- لطائف الإرشارات للإمام القشيري جـ ٢ ، ص ٢٦٤ حققه الدكتور إبراهيم بسيوني ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ١٩٨١م

(٧)- سورة فصلت الآية ٤٢ .

(٨)- سورة القيامة الآيات ١٦ : ١٩ .

(٩)- حاشية الشهاب على البيضاوي جـ ٥ ، ص ٢٨٤ .

قال الإمام الرازي :
" والقول بأنه عائد إلى الذكر أرجح القولين وأحسنهما مشابهة لظاهر التنزيل". (١)

وقال الإمام الخازن :
" القول بأن الضمير يرجع إلى الذكر أصح وأشهر وهو قول الأكثرين لأنه أشبه بظاهر التنزيل ورد الضمير إلى أقرب مذكور أولى وهو الذكر " . (٢)

وقال النيسابوري :
" القول بأن الضمير للذكر أوضح ". (٣)

وقال ابن عاد ل:
" الضمير في له للذكر وهو الظاهر " .

وقال الشنقيطي :
" وهذا هو الصحيح في معنى هذه الآية أن الضمير في قوله " وإنا له لحافظون " راجع إلى الذكر الذي هو القرآن وهو الحق كما يتبادر من ظاهر السياق" . (٤)

وقال أبو حيان :
" الظاهر أن الضمير في له عائد على الذكر لأنه المصرح به في الآية " . (٥)

وقال السمين الحلبي :
" الضمير في له للذكر وهو الظاهر " . (٦)

وقال ابن كثير :
" و الضمير في له للذكر هو الأولى وهو ظاهر السياق " . (٧)

وبذلك نخلص إلى صواب اختيار الآلوسي في كون الضمير في له للذكر وذلك أن الآية بقرينة السياق إنما تدل على حفظ الذكر الذي هو القرآن بعد إنزاله إلى الأبد .

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ١٩ ، ص ١٢٧

(٢) لباب التأويل جـ ٣ ، ص ٥٧ .

(٣) غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٢١١ .

(٤) أضواء البيان جـ ٣ ، ص ١٢٠ .

(٥) البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٤٦٨ .

(٦) الدر المصون جـ ٤ ، ٢٨٩ .

(٧) تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٤ و ص ١٥٤ .

المسألة الثامنة والعشرون
الضمير للمقترحين من المشركين
في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ (١)

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

" فظلوا فيه " ضمير الجمع للمقترحين وهو الظاهر المروي عن الحسن وإليه ذهب الجبائي وأبو مسلم (٢) وأخرج ابن جريج (٣) عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه للملائكة وروي ذلك عن قتادة أيضاً (٤) أي فظل الملائكة الذين اقترحوا إتيانهم يعرجون في ذلك الباب وهم يرونهم على أتم وجه . (٥)

---

(١)- سورة الحجر الآية ١٤ .

(٢)- نسبه إلى الحسن والجبائي وأبو مسلم الطبرسي في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٤٢٩ ، ونسبه إلى الحسن وقتادة الطبري في جامع البيان جـ١٤ ، ص ١٥ ، وابن الجوزي في زاد المسير جـ ٤ ، ص ٣٨٦ ، والخازن في لباب التأويل جـ ٣ ، ص ٥٨ ، والماوردي في النكت والعيون جـ ٣ ، ص ١٥١ ، ونسبه إلى الحسن القرطبي في الجامع للأحكام جـ ١٠ ، ص ٨ ،البغوي في معالم التنزيل جـ ٣ ، ص ٤٥ ، وابن عطية في المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٣٥٣ ، والثعالبي في الجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ٢٠٨ وابن عادل في اللباب جـ ١١ ، ص ٤٣٦ ، ونسبه إلى ابن عباس الرازي في مفاتيح الغيب جـ ١٩ ، ص ١٣٢ ، والنيسابوري في غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٢٩١ ، والبحر المحيط جـ ٦ ، ص ٤٧٠ ، وحاشية زاده جـ ٥ ، ص ٢٠٠ ، والكشاف جـ ٢ ، ص ٣٢١ ، وفتح البيان جـ ٣ ، ص ٥٧١ ، وحاشية الشهاب جـ ٥ ، ص ٢٨٦ .

(٣)- ابن جريج : المعمر المسند أبو القاسم أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي المطرف ابن سعيد بن جريج القرطبي الذي سمع مصنف النسائي من أبي جعفر البطروجي ، عاش إحدى وتسعين سنة ومات في رجب سنة إحدى عشرة وستمائة ، بينه وبين النسائي أربعة أنفس (انظر : سير الأعلام النبلاء جـ ٢٢ ، ص ٣٠)

(٤)- نسبه إلى ابن عباس وقتادة الطبرسي في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٤٢٩ ، والقرطبي في الجامع جـ ١٠ ، ص ٨ ، وزاد الطبري الضحاك وقتادة في جامع البيان جـ ١٤ ، ص ١٥ ، ونسبه إلى ابن عباس والضحاك ، ابن الجوزي في زاد المسير جـ ٤ ، ص ٣٨٦ ، والخازن في لباب التأويل جـ٣ ، ص ٥٨ ، والماوردي في النكت والعيون جـ ٣ ، ص ١٥١ ، ونسبه إلى ابن عباس السيوطي في الدر المنثور جـ ٨ ، ص ٥٩٥ ، وابن أبي حاتم في مسنده جـ ٧ ص ٢٢٥٩ ، والشوكاني في فتح القدير جـ ٣ ، ص ١٧٧ ، والثعالبي في الجواهر الحسان= =جـ ٢ ، ص ٢٠٨ ، وصديق خان في فتح البيان جـ ٣ ، ص ٥٧١، وابن عطية في المحرر الوجيز جـ ٣، ص ٣٥٣ ، وأبي حيان في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٤٧٠ ، وبدون نسبة في مفاتيح الغيب جـ ١٩ ، ص ١٣٢ ، وإرشاد العقل السليم جـ ٥ ، ص ٧٠ ، والدر المصون جـ ٤ ، ص ٢٩١ ، وحاشية زاده جـ ٥ ، ص ٢٠٠ ، واللباب جـ ١١ ، ص ٤٣٦ ، وغرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٢١٣ ، وحاشية الشهاب جـ ٥ ، ص ٢٨٦ ، والكشاف جـ ٢ ص ٣١٢ .

(٥)- روح المعاني جـ ٨ ، ص ٢٩ .

المعنى الإجمالي للآية :

عند ما طلب كفار مكة نزول الملائكة ، حتى يؤيدوا محمداً في دعواه إن كان من الصادقين ، رد عليهم تبارك وتعالى بأنا لو فتحنا عليهم بابا من السماء ويسرنا لهم الدخول في عالمها فداموا يعرجون فيه عروجاً بعد عروج حتى يتكرر لهم مشاهدة ما فيه من أسرار الغيب وملكوت الأشياء لقالوا إنما غشيت أبصارنا فشاهدت أموراً لا حقيقة لها بل نحن قوم مسحرون . (١)

دراسة النص :

الناظر إلى هذا النص يرى أن الإمام الآلوسي حكى قولين في عود الضمير في فظلوا وهما :

القول الأول : أن الضمير للمقترحين .

القول الثاني : أن الضمير للملائكة .

ثم استظهر كون الضمير للمقترحين وهذا الترجيح تقوية القاعدة الآتية :

(توحيد مرجع الضمائر في السياق الواحد أولى من تفريقها)

وهو الراجح لما يأتي :

أولاً : أن صعود المشركين أبلغ في الحجة عليهم فحتى لو وصلناهم إلي صعود السماء لم يستشعروا إلا الكفر لعنادهم . (٢)

ثانياً : أن ذلك فيه إبطال لجميع معاذيرهم من قولهم " لو ما تأتينا بالملائكة " وقولهم " إنك لمجنون " بأنهم لا يطلبون الدلالة على صدقه لأن دلائل الصدق بينة ولكنهم ينتحلون المعاذير المختلفة وأنهم لو رأوا ذلك رأي العين لاعتذروا بأنها تخيلات وأنهم سحروا فرأوا ما ليس بشيء شيئاً . (٣)

ثالثا : أنهم هم من طلبوا أن تنزل عليهم الملائكة وأقسموا بالله لئن جاءتهم آية الله ليؤمن بها ولو جاءتهم لا يؤمنون ، فالله تعالى يبين أنهم لو رفعهم إلى الملائكة وفتح لهم بابا يرتفعون إليه حتى يروا الملائكة عياناً ما آمنوا . (٤)

رابعاً : اختار سبحانه من بين الخوارق التي يظن انها ترفع عنهم الشبهة وتزيل عن نفوسهم الريب فتح باب من السماء وعروجهم فيه لأنه كان يعظم في أعينهم أكثر من غيره ولذلك لما اقترحوا عليه أموراً من الخوارق العظيمة ذكروا الرقي إلى السماء في آخر تلك الخوارق المذكورة علي سبيل الترقي كما حكاه الله عنهم بقوله **﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً ﴾** إلى أن قال **﴿ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ ﴾** (٥)

---

(١)- الميزان جـ ١١ ، ص ١٣٥ .

(٢)- زاد المسير جـ ٤ ، ص ٣٨٦ .

(٣)- التحرير والتنوير جـ ١٣ ، ص ٢٦ .

(٤)- زهرة التفاسير جـ ٨ ، ص ٤٠٧٥ .

(٥)- سورة الإسراء الآيات ٩٠ : ٩٣ .

على أن السماء مأوى الملائكة الكرام ومنبع الوحي فعروج الإنسان فيها يوجب إطلاعه على مجاري الأمور وحقائق الوحي والنبوة وخاصة إذا كان عروجاً مستمراً لا مرة واحدة كما يشير إليه قوله " فظلوا فيه يعرجون ، فالفتح والعروج بهذا النعت يطلعهم على أصول هذه الدعوة الحقة لكنهم لما في قلوبهم من الفساد وفي نفوسهم من ريبة يخطئون أبصارهم فيما يشاهدون . (١)

خامساً : أن صعودهم بأنفسهم حتى يروا ما هو محسوس مشاهد بالأعين مماس بالأجساد بالحركة والانتقال . (٢)

ثم بعد ذلك هم مصرون على عنادهم وعدم إيمانهم

ذكر الإمام الرازي قول ابن عباس في تفسيره فقال :

" لو ظل المشركون يصعدون في تلك المعارج وينظرون إلى ملكوت الله تعالى وقدرته وسلطانه وإلى الملائكة الذين هم من خشيته مشفقون لشكوا في تلك الرؤية وبقوا مصرين على كفرهم وجهلهم كما جحدوا سائر المعجزات من انشقاق القمر وما خص به النبي ﷺ من القرآن المعجز الذي لا يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمثله " . (٣)

وبهذا نخلص إلى صواب اختيار الآلوسي .

---

(١)- الميزان في تفسير القرآن جـ ١٢ ، ص ١٣٥ .

(٢)- البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٤٦٩ .

(٣)- مفاتيح الغيب للرازي جـ ١٩ ، ص ١٣٢ .

openkandl.com

المسألة التاسعة والعشرون
الوقت المعلوم هو وقت النفخة الأولى

في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ (١)

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

" إلى يوم الوقت المعلوم " وهو وقت النفخة الأولى كما روي عن ابن عباس وعليه الجمهور(٢) ومن الناس من قال : إن المراد باليوم المعلوم اليوم الذي علم الله تعالى فيه انقضاء أجله ، وهو يوم خروج الدابة فإنها هي التي تقتله ، وقد نقل هذا القول عن بعض السلف وهو من الغرابة بمكان ، وأعزب منه ما قيل أنه هلك في بعض غزواته ﷺ وهذا مما لا يكاد يقبل بظاهره أصلاً (٣) والمشهور المعول عليه عند الجمهور هو ما ذكرناه من أنه يموت عند النفخة الأولى . (٤)

المعنى الإجمالي للآية :

طلب إبليس من ربه أن يمهله ، وأن يؤخر موته إلى يوم يبعث آدم وذريته ، كأنه طلب ألا يموت أيضاً ، لأنه إذا أخر موته إلى البعث ، فهو يوم لا موت فيه ، واستجاب الله لإبليس فأمهله ، وأخبره بأنه من جملة من أخر آجالهم من مخلوقاته ، إلى وقت نفخ إسرافيل في الصور فيموت إبليس كغيره ، ويبعثون جميعاً بعد أربعين سنة . (٥)

دراسة النص :

نلاحظ في هذا النص أن الإمام الآلوسي حكى أقوال أهل التفسير في المراد بالوقت المعلوم وهي كالتالي :

القول الأول : أنه وقت النفخة الأولى .

القول الثاني : أنه وقت خروج الدابة .

القول الثالث : أن إبليس هلك في بعض غزواته ﷺ .

ثم اختار الآلوسي قول جمهور العلماء ولعل الإمام في هذا الترجيح إعتمد على القاعدة الآتية :

(تفسير جمهور السلف مقدم على كل تفسير شاذ)

---

(١)- سورة الحجر الآية ٣٧ ، ٣٨ .

(٢)- هو قول ابن عباس في الدر المنثور للسيوطي جـ ٨ ، ص ٦١٥ ، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم جـ ٧ ، ص ٢٢٦٤ ، والجامع للقرطبي جـ ١٠ ، ص ٢٧ ، ومجمع البيان للطبرسي جـ ٥ ، ص ٤٣٦ وفتح البيان لصديق خان جـ ٣ ، ص ٥٨٣ ، ونسبه إلى الكلبي الواحدى في الوسيط جـ ٣ ، ص ٤٥ وبدون نسبة في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٤٧٧ ، ولباب التأويل جـ ٣ ، ص ٦٦ ، ومفاتيح الغيب جـ ١٩ ، ص ١٤٦ ، وحاشية زاده جـ ٥ ، ص ٢١٤ ، واللباب جـ ١١ ، ص ٤٥٨ .

(٣)- بدون نسبة في المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٣٦٢ .

(٤)- روح المعاني جـ ٨ ، ص ٧٠ .

(٥)- تفسير القرآن الكريم د / عبد الله شحاته جـ ٧ ، ص ٢٥٨١ .

obeikandl.com

وهو الراجح لما يأتي :

أولا : أن وقت النفخة الأولى يموت عندها الخلائق من الإنس والجن ويصعق من في الأرض السماوات والأرض إلا من شاء الله . (١)

ففيها آخر وجود لنوع الإنسان في الدنيا فلا داعي لوجوده بعد ذلك .

قال تعالى : ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ** ﴾ (٢)

فيموت إبليس كغيره وقت نفخ إسرافيل في الصور ويبعثون جميعاً بعد أربعين سنة وهو مقدار ما بين النفختين .

ثانياً : أن بموت جميع الخلائق تكون مهمته قد انتهت فلا داعي لبقائه بعد ذلك .

قال الكلبي : " إذا نفخت النفخة الأولى مات الخلائق كلهم ومات إبليس معهم ". (٣)

وبهذا نخلص إلى صواب اختيار الآلوسي وإليه مال أبي حيان (٤) وأبي السعود. (٥)

---

(١)- إرشاد العقل السليم جـ ٥ ، ص ٧٧ .

(٢)- سورة الزمر آية ٦٨ .

(٣)- الوسيط للواحدي جـ ٣ ، ص ٤٥ .

(٤)- انظر البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٤٧٧ .

(٥)- انظر إرشاد العقل السليم جـ ٥ ، ص٧٧ .

obeikandl.com

المسألة الثلاثون
السبع المثاني هي الفاتحة
في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ [١]

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

" ولقد أتيناك سبعاً " أي سبع آيات وهي الفاتحة وروي ذلك عن عمر [٢] وعلي وابن عباس وابن مسعود وأبي جعفر [٣] وأبي عبد الله والحسن ومجاهد وأبي العالية والضحاك وابن جبير وقتادة رضي الله تعالى عنهم . وجاء ذلك مرفوعاً أيضاً إلى رسول الله من حديث أبي هريرة [٤] رضي الله تعالى عنهما [٥] ، وقيل : سبع سور وهي الطول .

---

(١)- سورة الحجر الآية ٨٧ .

(٢)- عمر هو : عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح القرشي العدوي ، أبو حفص أمير المؤمنين كان إسلامه عزاً ظهر به الإسلام بدعوة النبي ﷺ وقد شهد بدراً والمشاهد كلها ، وولي للخلافة بعد أبي بكر ، فسار أحسن سيرة ، وإستشهد يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة ، وهو إبن ثلاث وستين سنة (الإصابة في تمييز الصحابة جـ ٧ ، ص ٧٤) .

(٣)- أبي جعفر : هو يزيد بن القعقاع المدني ، أحد الأئمة العشرة في القراءات ، وحدث عن أبي هريرة وابن عباس ، وحدث عنه مالك بن أنس ، ووثقه ابن معين والنسائي ، مات سنة سبع وعشرين ومائة ، عاش نيفا وتسعين سنة .انظر سير أعلام النبلاء جـ ٥ ، ص ٢٨٧ ، والجرح والتعديل جـ ٩ ، ص ٢٨٥ ، والتاريخ الكبير جـ ٨ ، ص ٣٥٣ .

(٤)- أبي هريرة : هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي اليماني سيد الحفاظ الأثبات ، حمل عن النبي علماً كثيراً طيباً ، وسمي بذلك لأنه كان يحمل هرة في يده فكني بها ، قدم المدينة سنة سبع للهجرة ، ولازم النبي ﷺ حتى مات ، توفي سنة سبع وخمسين (انظر : سير أعلام النبلاء جـ ٢ ، ص ٥٧٨ ، والإصابة جـ ١٢ ، ص ٦٣)

(٥)- هو قول عمر وعلي وابن عباس وابن مسعود والحسن ومجاهد وأبي العالية والضحاك وابن جبير وقتادة وأبي هريرة وأبي بن كعب في إرشاد العقل السليم جـ ٥ ، ص ٨٨ ، والدر المنثور جـ ٨ ، ص ٦٤٧ واللباب جـ ١١ ، ص ٤٨٦ ، وغرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٢٣٣ ، ومفاتيح الغيب جـ ١٩ ، ص ١٦٤ ، ومجمع البيان للطبرسي جـ ٥ ،ص ٤٤٦ ، وزاد المسير جـ ٤ ، ٤٢٣ ، وزاد الطبرسي أبي مليكة وعطاء في جامع البيان جـ ١٤ ، ص ٧١ ، وزاد أبي حيان ابن أبي مليكة وعبيد بن عمير في البحر المحيط جـ ٦ ،ص ٤٩٣ ، وابن عطية في المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص٣٧٣ ، وزاد الشوكاني الربيع والكلبي في فتح القدير جـ ٣ ، ص ٢٠٠ ، وزاد الخازن عطاء في لباب التأويل جـ ٣ ، ص ٧٣ ، ونسبه إلى علي وأبي العالية ابن أبي حاتم في مسنده جـ ٧ ، ص ٢٢٧٢ وبدون نسبة في الكشاف جـ ٢ ، ص ٣١٨ ، وحاشية زاده جـ ٥ ، ص ٢٣٣ .

وروي ذلك أيضاً عن عمر ابن عباس وابن مسعود وابن جبير ومجاهد [١] وهي في رواية البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة سورة واحدة ، وقيل السبع آل حم [٢] وقيل : سبع صحف من الصحف النازلة على الأنبياء عليهم السلام[٣] على معنى أنه عليه الصلاة والسلام أوتي ما يتضمن سبعاً منها وإن لم يكن بلفظها وهي الأسباع ، وعن زياد بن أبي مريم هي أمور سبع : الأمر والنهي والبشارة والإنذار وضرب الأمثال وتعداد النعم وأخبار الأمم [٤] وأصح الأقوال الأول " . [٥]

المعنى الإجمالي للآية :

بعد أن أمر رسوله أن يصبر على أذى قومه ، وأن يصفح عنهم الصفح الجميل ، أردف ذلك ذكر ما أولاه من النعم وما أغدق عليه من الإحسان ، ليسهل عليه الصفح ويكون فيه سلوة له على احتمال الأذى ، فذكر أنه آتاه السبع المثاني وهي الفاتحة التي تثنى وتكرر في كل صلاة والقرآن العظيم الجامع لما فيه هدي البشر وصلاحهم في دينهم وآخرتهم . [٦]

---

(١)- هو قول ابن عمر وابن مسعود وابن عباس وابن جبير ومجاهد في البحر المحيط جـ ٦، ص ٩٣ ، والمحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٣٧٣ ، ولباب التأويل جـ ٣ ، ص ٧٣ ، وزاد الطبري الضحاك في جامع البيان جـ ١٤ ، ص ٧١ ، وابن الجوزي في زاد المسير جـ ٤ ، ص ٤١٣ ، والطبرسي في مجمع البيان جـ ٥ ، ٤٤٦ ، وزاد السيوطي في الدر المنثور سفيان جـ ٨ ، ص ٦٤٧ ، ونسبه إلى ابن عباس وسعيد بن جبير ابن أبي حاتم في مسنده جـ ٧ ، ص ٢٢٧٢ ، ونسبه إلى ابن عمر وسعيد بن جبير الرازي في مفاتيح الغيب جـ ١٩ ، ص ١٦٤ ، والنيسابوري في غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٢٣٣ ، ونسبه إلى ابن عباس الشوكاني في فتح القدير جـ ٣ ، ص ٢٠٠ ، والقرطبي في الجامع للأحكام جـ ١٠ ، ص ٥٥، وصديق خان في فتح البيان جـ ٣ ، ص ٦٠٠ ، ونسبه إلى ابن مسعود الثعالبي في الجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ٢١٧ ، وبدون نسبة في إرشاد العقل السليم جـ ٥ ، ص٨٨ .

(٢)- بدون نسبة في إرشاد العقل السليم جـ ٥ ، ص ٨٨ ، والبحر المحيط جـ ٦ ، ص ٤٩٣ ، والكشاف جـ ٢ ، ص ٣١٨ .

(٣)- بدون نسبة في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٤٩٣ ، والكشاف جـ ٢ ، ص ٣١٨ ، وإرشاد العقل السليم جـ ٥ ، ص ٨٨

(٤)- هو قول زياد بن أبي مريم في جامع البيان للطبري جـ ١٤ ، ص ٧١ ، والدر المنثور للسيوطي جـ ٨ ، ص ٦٤٧ وتفسير القرآن العظيم لابن أبي الحاتم جـ ٧ ، ص ٢٢٧٢ ، والجامع للقرطبي جـ ١٠، ص ٥٥ ، البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٤٩٣ .

(٥)- روح المعاني جـ ٨ ، ص ١١٦ .

(٦)- تفسير المراغي لفضيلة الأستاذ : أحمد مصطفى المراغي جـ ١٣ ، ص ٤٤ ط دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٨٥م .

دراسة النص :

نلاحظ في هذا النص أن الإمام الآلوسي أورد الأقوال في المراد بالسبع المثاني على خمسة أقوال :

القول الأول : أن المراد بالسبع المثاني الفاتحة .

القول الثاني : أن السبع المثاني السبع الطوال .

القول الثالث : السبع المثاني آل حم .

القول الربع : السبع المثاني سبع صحف من الصحف النازلة على الأنبياء عليهم السلام .

القول الخامس : السبع المثاني سبع أمور هي الأمر والنهي والبشارة والإنذار وضرب الأمثال وتعداد النعم وأخبار الأمم .

وقد صحح الإمام الآلوسي أن السبع المثاني فاتحة الكتاب وقد أصاب الإمام في ذلك أجرين كاملين وهو اختيار سديد ، مؤسس على القاعدة التفسيرية :

(إذا ثبت الحديث وكان نصاً في تفسير الآية فلا يصار إلى غيره)

وهو الراجح لما يأتي :

أولاً: أن هذا التفسير يشهد له أحاديث صحيحة ثابتة عن النبي ﷺ .

قال القرطبي :

" وإذا ورد عن النبي ﷺ وثبت عنه نص في شيء لا يحتمل التأويل كان الوقوف عنده " [١]

والأحاديث التي وردت عن النبي ﷺ في أن السبع المثاني هي الفاتحة ما يلي :

١- حديث رسول الله الذي رواه البخاري عن أبي سعيد بن المعلى [٢] قال " **مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي فدعاني فلم آته حتى صليت ثم أتيت فقال ما منعك أن تأتي ، فقلت كنت أصلي فقال " ألم يقل الله " يا أيها الذين آمنوا إستجيبوا لله وللرسول ؟ ثم قال ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد ؟ فذهب النبي ليخرج فذكرته فقال الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته**" . [٣]

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ " **أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم** " . [٤]

---

(١)- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١٠ ، ص ٥٥ .

(٢)- أبو سعيد بن المعلى : هو الحارث بن المعلى وقيل الحارث بن نفيع بن المعلى هو أبو سعيد مشهور بكنيته ، أخرج له البخاري من رواية بن حفص بن عاصم عنه ، وروى عنه عبيد بن حصين أيضاً . الإصابة جـ ٨ ، ص ٨٤ .

(٣)- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر كتاب التفسير باب " ولقد آتيناك سبعاً من المثاني " جـ ٨ ، ص ٢٣٢ حديث رقم ٤٧٠٣ .

(٤)- نفس المصدر السابق والجزء والصفحة رقم الحديث ٤٧٠٤ .

openkanal.com

٣- ما أخرجه الترمذي [١] من حديث أبي هريرة عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ **" ما أنزل الله في التوراة والإنجيل مثل أم القرآن وهي السبع المثاني وهي مقسومة بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل "** . [٢]

٤- ما رواه أبو داود [٣] عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ **" الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني "** . [٤]

قال ابن كثير:

" فهذا نص في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم " . [٥]

وقال أبو حيان :

" ولا ينبغي أن يعدل عن هذا القول بل لا يجوز العدول عنه لما في حديث أبيّ وحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنها السبع المثاني وأم القرآن " . [٦]

وقال القرطبي :

" والصحيح الأول لأنه نص " . [٧]

وقال الإمام الطبري :

" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : عنى بالسبع المثاني السبع اللواتي هن آيات أم الكتاب لصحة الخبر بذلك عن رسول الله " . [٨]

ثانياً : مما يقوي كون السبع المثاني هي الفاتحة أن هذه السورة مكية وأكثر السبع الطوال مدنية وظاهر قوله " ولقد آتيناك سبعاً من المثاني " أنه تقدم إيتاء السبع على نزول هذه الآية . [٩] فسورة الفاتحة مكية والحجر مكية والسبع الطوال مدنية . [١٠]

فوجب المصير بهذا إلى القول بأنها فاتحة الكتاب إذا لا كلام لأحد معه صلى ﷺ .

---

(١)- الترمذي هو : محمد بن عيسى بن سورة بن موسى الضحاك ، أبو عيسى الترمذي ، الحافظ العلم البارع صاحب الجامع ، والعلل ، وغيرها ولد في حدود سنة عشر ومائتين ، مات سنة تسع وسبعين ومائتين (انظر : سير أعلام النبلاء جـ ١٣ ، ص ٢٧٠)

(٢)- سنن الترمذي كتاب التفسير باب ومن سورة الحجر جـ ٥ ، ص ٨٧ حديث رقم ٣١٣٦ ، قال أبو عيسى : هذا حديث صحيح .

(٣)- أبو داود : سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن شداد بن عامر الأزدي أبو داود السجستاني ، الإمام الثبت سيد الحفاظ ، صاحب السنن ، ولد سنة اثنين ومائتين ، رحل وصنف وذب عن السنن ، مات سنة خمس وسبعين ومائتين (انظر : سير أعلام النبلاء جـ ١٣ ، ص ٢٠٣ ، وطبقات الحفاظ للسيوطي جـ ١ ، ص ٢٦٥)

(٤)- سنن أبو داود كتاب الصلاة باب فاتحة الكتاب جـ ٢ ، ص٧٢ حديث رقم ١٤٥٧ .

(٥)- تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٤ ، ص ١٧٣ .

(٦)- البحر المحيط لأبي حيان جـ ٦ ، ص ٤٩٤ .

(٧)- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١٠ ، ص ٥٥ .

(٨)- جامع البيان للطبري جـ ١٤ ، ص ٧٧ .

(٩)- فتح القدير للشوكاني جـ ٣ ، ص ٢٠١ .

(١٠)- الإتقان للسيوطي جـ ١ ، ص٢٦ ، والبرهان للزركشي جـ ١ ، ص ١٩٣ .

المسألة الحادية والثلاثون
المراد بالبلد كل بلد سحيق

في قوله تعالى: ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١)

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

" إلى بلد " روي عن ابن عباس أنه اليمن والشام ومصر (٢) وكأنه نظر إلى أنها متاجر أهل مكة ، وفي رواية أخرى عنه ، وعن الربيع بن أنس ، وعكرمة أنه مكة (٣) وكأنهم نظروا إلى أن أثقالهم وأحمالهم عند القفول من متاجرهم أكثر وحاجتهم إلى الحمولة أمس ، والظاهر أنه عام لكل بلد سحيق . (٤)

المعنى الإجمالي للآية :

أن الأنعام كالإبل وبعض البقر تحمل أمتعتكم الثقيلة إلى بلد ليس يتيسر لكم بلوغها إلا بمشقة تتحملها أنفسكم فرفع عنكم المشاق بخلقها وتسخيرها لكم إن ربكم لعظيم الرأفة والرحمة بكم ، حيث لم يترككم تحملون أثقالكم بأنفسكم ،وتقطعون المسافات الطويلة على أرجلكم ، بل أوجد هذه الأنعام لمنافعكم ومصالحكم . (٥)

دراسة النص :

الناظر إلى هذا النص يرى أن الإمام الآلوسي حكى أقوال المفسرين حول المراد بالبلد في الآية على ثلاثة أقوال :

القول الأول : أن المراد بالبلد اليمن والشام ومصر .

القول الثاني : أن المراد بالبلد مكة .

القول الثالث : أنه عام لكل بلد سحيق .

---

(١)- سورة النحل الآية ٧ .

(٢)- هو قول ابن عباس في مفاتيح الغيب جـ ١٩ ، ص ١٧٢ ، ولباب التأويل جـ ٣ ، ص ٨٠ ، وغرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٢٤٥ ، وإرشاد العقل السليم جـ ٥ ، ص٩٧ ، واللباب جـ ١٢ ، ص ١٥ ، وبدون نسبة في فتح القدير جـ ٣ ، ص ٢١١ ، وفتح البيان جـ ٤ ، ص٧ .

(٣)- هو قول ابن عباس والربيع وعكرمة في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٥٠٨ ، والمحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٣٨٠ ، ونسبه إلى ابن عباس وعكرمة الطبرسي في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٤٥٤ ، ونسبه إلى عكرمة ابن الجوزي في زاد المسير جـ ٤ ،ص ٤٣٠ ، وأبو السعود في إرشاد العقل السليم جـ ٥ ص ٩٧ ، والطبري في جامع البيان جـ ١٤ ، ص ١٠٨ ، والقرطبي في الجامع للأحكام جـ ١٠ ، ص ٧١ ، ونسبه إلى ابن عباس السيوطي في الدر المنثور جـ ٩ ، ص ١١ ، وابن حاتم في تفسيره جـ ٧ ، ص ٢٢٧٧ ، وصديق خان في فتح البيان جـ ٤ ، ص٧ ، وبدون نسبة في فتح القدير جـ ٣ ، ص ٢١١ .

(٤)- روح المعاني جـ ٨ ، ص ١٤٧.

(٥)- انظر : الميزان جـ ١٢ ، ص ٢١١ ، وتفسير القرآن الكريم د/ عبد الله شحاته جـ ٧ ، ص٢٦٢٧ .

ثم استظهر القول بأنها عام في كل بلد سحيق وهو استظهار سديد تؤيده القاعدة التفسيرية:

(يجب حمل نصوص الوحي على العموم ما لم يرد نص بالتخصيص)

وهو الراجح لما يأتي :

أولاً : حمله على العموم أولى لأنه خطاب عام فدخول الكافة فيه أولى من تخصيصه ببعض المخاطبين . (١)

ثانياً : البلد لا يراد به معين وينبغي حمل هذه الأقوال على التمثيل لا على المراد إذ المنة لا تختص بالحمل عليها . (٢)

ثالثاً : تنكير البلد للتفخيم والتهويل والمعنى إلى بلد بعيد غاية البعد بحيث لا يبلغ الإنسان إليه بالمشي على رجليه فضلاً عن أن يبلغه وهو يحمل أثقاله على ظهره ولما كان المقام مقام توصيف البلد بالبعد وتحقيق بعده حسن توصيفه بقوله " لم تكونوا بالغية إلا بشق الأنفس " . (٣)

وبناء على ما سبق نخلص إلى صواب اختيار الآلوسي وإليه مال جمع من المفسرين إليك بعض أقوالهم :

قال ابن عطية :

" أي بلد توجهتم بحسب اختلاف أغراض الناس " . (٤)

قال الواحدي : (٥)

" المراد كل بلد لو تكلفتم بلوغه على غير الإبل شق عليكم " . (٦)

وقال أبو السعود :

" والظاهر أنه عام لكل بلد سحيق " . (٧)

---

(١)- لباب التأويل جـ ٣ ، ص ٨٠ .

(٢)- البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٥٠٨ .

(٣)- حاشية زاده جـ ٥ ، ص٢٤٨ .

(٤)- المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٣٨٠ .

(٥)- الواحدي : هو الإمام علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري ، كان أوحد عصره في التفسير ، كان تلميذاً للثعالبي وعنه أخذ التفسير ، صنف التفاسير الثلاثة " البسيط ، والوسيط ، والوجيز " وتوفى بنيسابور سنة ثمان وستين وأربعمائة (انظر : وفيات الأعيان جـ ٢ ، ص ١٤٤ وطبقات الشافعية الكبرى للإمام تاج الدين السبكي المتوفى ٧٧١هـ جـ ٥ ، ص ٢٤٠ تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، ومحمود الطناحي ، مطبعة عيسى الحلبي – الطبعة الأولى)

(٦)- الوسيط للواحدي جـ ٣ ، ص ٥٦ .

(٧)- إرشاد العقل السليم جـ ٥ ، ص ٩٧ .

وقال الشوكاني :

" ظاهره بتناول كل بلد بعيد من غير تعيين " . [١]

وقال ابن الجوزي :

" أنه عام في كل بلد يقصده المسافر وهو قول الأكثرين وهو الأصح " [٢]

فالصواب من هذا كله حمل البلد على العموم وهو اختيار الإمام الآلوسي .

---

(١)- فتح القدير جـ ٣ ، ص ٢١١ .

(٢)- زاد المسير جـ ٤ ، ص٤٣٠ .

obeikandl.com

المسألة الثانية والثلاثون
المراد بالعلامات معالم يستدل بها السابلة

في قوله تعالى: ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (١)

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

" وعلامات " معالم يستدل بها السابلة من نحو جبل ومنهل ورائحة تراب فقد حكى أن من الناس من يشم التراب فيعرف بشمه الطرق وإنها مسلوكة أو غير مسلوكة (٢) ولذا سميت المسافة مسافة أخذاً لها من السوف بمعنى الشم ، وأخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس أنها معالم الطريق بالنهار (٣) وعن الكلبي أنها الجبال (٤) وعن قتادة أنها النجوم (٥) وقال ابن عيسى : المراد منها الأمور التي يعلم بها ما يراد من خط أو لفظ أو إشارة أو هيئة (٦) والظاهر ما ذكر أولاً وأغرب ما فسرت به وأبعده أن المراد منها حيتان طوال

---

(١)- سورة النحل الآية ١٦

(٢)- انظر : مفاتيح الغيب للرازي جـ ٢٠ ، ص ٩ .

(٣)- هو قول ابن عباس في جامع البيان جـ ١٤ ، ص ١٢٢ ، والبحر المحيط جـ ٦ ، ص ٥١٤ ، وزاد المسير جـ ٤ ، ص ٤٣٦ ، والجامع للقرطبي جـ ١٠ ، ص٩١ ، والجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ٢٢٣ و المحرر الوجيز جـ٣ ، ص ٣٨٤ ، وفتح البيان جـ ٣ ، ص ١٦ ، وتفسير ابن أبي حاتم جـ ٧ ، ص ٢٢٧٩ ، والدر المنثور جـ ٩ ، ص ٢٥ ، وصفوة التفاسير للصابوني جـ ٢ ص ٣٦ ، والنكت والعيون جـ٣ ، ص ١٨٢ ، وبدون نسبة في فتح القدير جـ ٣ ، ص ٢١٨ وحاشية زاده جـ ٥ ، ص ٢٥٧ ، والكشاف جـ ٢ ، ص ٣٢٥ ، وإرشاد العقل السليم جـ ٥ ، ص ١٠٤ .

(٤)- هو قول الكلبي في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٥١٤ ، والجامع للقرطبي جـ ١٠ ، ص ٩١ ، وجامع البيان جـ ١٤ ، ص ١٢٢ ، والمحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٣٨٤ ، ونسبه إلى محمد بن كعب والكلبي الخازن في لباب التأويل جـ ٣ ، ص ٨٤ ، وابن عادل في اللباب جـ ١٢ ، ص ٣٥ ، ونسبه إليى السدي والكلبي السيوطي في الدر المنثور جـ ٩ ، ص ٢٥ ، ونسبه إلى ابن السائب ومقاتل ابن الجوزي في زاد المسير جـ ٤ ، ص ٤٣٦ ، ونسبه إلى محمد بن كعب والسدي البغوي في معالم التنزيل جـ ٣، ص٦٤، وبدون نسبة في فتح القدير جـ ٣ ، ص ٢١٨ .

(٥)- هو قول قتادة في مسند ابن أبي حاتم جـ ٧ ، ص ٢٢٧٩ ، وقول إبراهيم النخعي ومجاهد في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٥١٤ ، والمحرر الوجيز جـ ٣٦ ، ص ٣٨٤ ، وقول مجاهد وقتادة والنخعي في زاد المسير جـ ٤ ، ص ٤٣٦ ،وجامع الطبري جـ ١٤ ، ص ١٢٢ ، والدر المنثور جـ ٩ ، ص ٢٥ ، والجامع للقرطبي جـ ١٠ ، ص ٩١ ، وقول مجاهد وقتادة في مجمع البيان جـ ٥ ، ص ٤٥٨ ، والسمرقندي في تفسيره المسمى بحر العلوم ، جـ ٢ ، ص ٢٨١، تحقيق محب الدين العمروي ، ط دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م . وقول مجاهد في معالم التنزيل جـ ٣ ، ص ٢١٨ .

(٦)- هو قول ابن عيسى في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٥١٤ .

القامة كالحيات في ألوانها وحركتها تكون في بحر الهند الذي يسار إليه من اليمن [١] سميت بذلك لأنها إذا ظهرت كانت علامات للوصول إلى بلاد الهند وأمارة للنجاة. [٢]

المعنى الإجمالي للآية :

ألهم الله الناس أمارات ودلائل يضعوها ويتعارفوها من هذه المعالم : الجبال الكبيرة والآكام الصغيرة ، والعيون والأفلاج ، ومطلع الشمس ومغربها نهاراً وبالنجوم ومواقعها يهتدون ليلاً للسفر في البر والبحر حتى إذا ضل الطريق كانت عوناً له وهدته إلى السبيل السوي في البر والبحر . [٣]

دراسة النص :

نلاحظ في هذا النص أن الإمام الآلوسي ذكر أقوال المفسرين في المراد بالعلامات على خمسة أقوال :

القول الأول : أن العلامات معالم الطرق بالنهار .

القول الثاني : أنها الجبال .

القول الثالث : أنها النجوم .

القول الرابع : أنها الأمور التي يعلم بها ما يراد من خط أو لفظ أو إشارة .

القول الخامس : أنها حيتان طوال رقاق .

ثم استظهر القول بأنها معالم الطرق بالنهار وهو مصيب في ذلك تؤيده القاعدة التفسيرية :

(يجب حمل نصوص الوحي على العموم ما لم يرد نص بالتخصيص)

وهو الراجح لما يأتي :

أولاً : أن كل ما دل على شيء وأعلم به فهو علامة وقول ابن عباس عموم في المعنى. [٤]

ثانياً : أن الله تعالى قد فصل أدلة الليل بقوله " وبالنجم هم يهتدون " فوجب أن تكون العلامات معالم الطرق وأماراتها التي يهتدي بها إلى المستقيم منها نهاراً . [٥]

وإلى هذا القول المختار مال الطبري [٦] وابن عطية والثعالبي وإليك أقوالهم :

قال ابن عطية : " والصواب إذا قدرنا الكلام غير معلق بما قبله أن اللفظة تعم هذا وغيره " . [٧]

قال الثعالبي معلقاً على قول ابن عباس : " وهذا قول حسن فإنه عموم بالمعنى واللفظة عامة " . [١]

---

(١)- بدون نسبة في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٥١٤ .

(٢)- روح المعاني جـ ٨ ، ص ١٧٢ .

(٣)- انظر : التحرير والتنوير جـ ١٣ ، ص ١٢٢ ، وتفسير القرآن الكريم د/ عبد الله شحاته جـ ٧ ، ص ٢٦٢٤ .

(٤)- المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٣٨٥ ، والجواهر الحسان جـ٢ ، ص ٢٢٣ .

(٥)- جامع البيان جـ ١٤ ، ص ١٢٤ .

(٦)- نفس المصدر السابق والجزء والصفحة .

(٧) المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٣٨٥ .

المسألة الثالثة والثلاثون
المراد بطيبين طاهرين من دنس الشرك
في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

" طيبين " معناه على ما روي عن أبي معاذ (٣) : طاهرين من دنس الشرك وهو المناسب لجعله في مقابلة ظالمي أنفسهم في وصف الكفرة بناء على أن المراد بالظلم أعظم أنواعه وهو الشرك (٤) وقال مجاهد : المراد بطيبين زاكية أقوالهم وأفعالهم (٥) وهو مراد من قال : طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي ، والكثير على تفسير الطيب بالطاهر عن قاذورات الذنوب مطابق الذي لا خبث فيه (٦) وقيل : المعنى فرحين ببشارة الملائكة عليهم السلام إياهم أو بقبض أرواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية إلى حضرة القدس (٧) فالمراد بالطيب طيب النفس وطيبها عبارة عن القبول مع انشراح الصدر .(٨)

---

(١) الجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ٢٢٣ .

(٢)- سورة النحل الآية ٣٢ .

(٣)- أبو معاذ هو : الفضل بن خالد ، أبو معاذ النحوي المروزي ، روى عن عبد الله بن المبارك ، والأزهري ،ولأبي معاذ كتاب في القرآن حسن ، وقال الحموي : روى عنه الأزهري في كتاب التهذيب فأكثر وذكره محمد بن حيان في تاريخ الثقات في الطبقة الرابعة ، مات سنة إحدى عشرة ومائتين ، انظر : الجرح والتعديل جـ ٧ ، ص ٦١ ، والثقات جـ ٩ ، ص ٥ .

(٤)- هو قو ل أبو معاذ في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٥٢٦ ، ونسبه إلى الكلبي الواحدي في الوسيط جـ ٣ ، ص ٦١ ، وبدون نسبة في الجامع للقرطبي جـ ١٠ ، ص ١٠١ ، وإرشاد العقل السليم جـ ٥ ، ص ١١٠، وفتح القدير جـ ٣ ، ص ٢٢٧ ، وزاد المسير جـ ٤ ، ص ٤٤٣ ، ولباب التأويل جـ ٣ ، ص ٨٨ ، وغرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٢٥٩ ، ومجمع البيان جـ ٥ ، ص ٤٦٤ ، والكشاف جـ٢ ، ص ٣٢٧ ، واللباب جـ ١٢ ، ص ٥٢ ، وفتح البيان جـ ٤ ، ص ٢٥ .

(٥)- هو قول مجاهد في لباب التأويل جـ ٣ ، ص ٨٨ ، ومعالم التنزيل للبغوي جـ ٣ ، ص ٦٧ ، وبدون نسبة في زاد المسير جـ ٤ ، ص ٤٤٣ ، وفتح القدير جـ ٣ ، ص ٢٢٧ ، والجامع للقرطبي جـ ١٠ ، ص ١٠١ .

(٦)- بدون نسبة في المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٣٩٠ .

(٧)- هو قول مجاهد في الدر المنثور جـ ٩ ، ص ٤٤ ، وتفسير ابن أبي حاتم جـ ٧ ، ص ٢٢٨٢ ، وبدون نسبة في فتح القدير جـ ٣ ، ص ٢٢٧ ، وزاد المسير جـ ٤ ، ص ٤٤٣ ، والجامع للقرطبي جـ ١٠ ، ص ١٠١

(٨)- روح المعاني جـ ٨ ، ص ١٩٦ .

obeikandl.com

المعنى الإجمالي للآية :

أن المتقين الذين تتوفاهم الملائكة متعرين عن خبث الظلم من الشرك والاستكبار طيبة نفوسهم بلقاء الله ، تسلم عليهم الملائكة وتبشرهم بالجنة وفاقا لما أحسنوا من العمل وأتوا به من جميل الصنع . (١)

دراسة النص :

نلاحظ في هذا النص أن الإمام الآلوسي حكى الأقوال في المراد بطيبين على أربعة أقوال وهي كالآتي :

القول الأول : المراد بطيبين طاهرين من دنس الشرك .

القول الثاني : المراد بها زاكية أقوالهم وأفعالهم .

القول الثالث : المراد بها طاهرين عن قاذورات الذنوب .

القول الرابع : المراد بها فرحين ببشارة الملائكة إياهم أو بقبض أرواحهم .

ثم مال إلى القول بأن المراد بها طاهرين من دنس الشرك معتمداً على القاعدة التفسيرية :

(إدخال الكلام في معاني ما قبله وما بعده أولى من الخروج به عنهما إلا بدليل يجب التسليم له)

وهو الراجح لما يأتي :

أولاً : أن هذا المعنى الذي رجحه الآلوسي من كون المراد بطيبين طاهرين من دنس الشرك هو المناسب لأنه في مقابلة ظالمي أنفسهم في قوله تعالى " الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم " ومقتضى المقابلة أن يفسر طيبين بطاهرين عن الكفر فقط فإن ظالمي أنفسهم صفة الكافرين . (٢)

ثانياً : الطيب في معناه اللغوي خلاف الخبيث وقد يرد بمعنى الطاهر . (٣)

والمراد هنا الطهارة القلبية وهي طهارة القلب من شوائب الكفر والنفاق . (٤)

قال الإمام أبو السعود :

" أن ملاك الأمر في التقوى هو الطهارة عما ذكر إلى وقت توفيهم وفيه حث للمؤمنين على الاستمرار على ذلك ولغيرهم على تحصيله " . (٥)

ثالثاً : أن الآية تصف المتقين بالتخلص عن التلبس بالظلم الذي هو الشرك فيعود مضمونها إلى معنى قوله ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ**

---

(١)- تفسير القرآن الكريم د/ عبد الله شحاته جـ ٧ ، ص ٢٦٤٧ ، وتفسير المراغي جـ ١٣ ، ص ٧٥ .

(٢)- حاشية الشهاب جـ ٥ ، ص٥٤٣ .

(٣)- لسان العرب جـ ٤ ، ص٢٧٣١ .

(٤)- الفتوحات الإلهية جـ ٢ ، ص ٥٦٩ .

(٥)- إرشاد العقل السليم جـ ٥ ، ص ١١١ .

وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [١] ومنه قوله تعالى **﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾** [٢]

ولا مانع من أن تكون كلمة طيبين كلمة مختصرة جامعة للمعاني الكثيرة وذلك لأنه يدخل فيه إتيانهم بكل ما أمروا به واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه ويدخل فيه كونهم موصوفين بالأخلاق الفاضلة مبرئين عن الأخلاق المذمومة ، ويدخل فيه كونهم مبرئين عن العلائق الجسمانية متوجهين إلى حضرة القدس ، ويدخل فيه أنه طاب لهم قبض أرواحهم ، وأنها لم تقبض إلا مع البشارة بالجنة . [٣] فهو وصف جامع لكل الخلال الباطنة والظاهرة .

---

(١) سورة الأنعام آية ٨٢ .

(٢) سورة الزمر آية ٧٣ .

(٣) مفاتيح الغيب جـ ٢٠ ، ص٢١ ، ولباب التأويل جـ٣ ، ص ٨٨ .

obeikandl.com

المسألة الرابعة والثلاثون
عموم المراد بالظلال

في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الجِبَالِ أَكْنَاناً﴾ [١]

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

" ظلالاً " أشياء تستظلون بها من الغمام والشجر والجبال وغيرها وهو الذي يقتضيه الظاهر وروي ذلك عن قتادة [٢] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ومجاهد الاقتصار على الغمام [٣] وعن الزجاج وقتادة أيضاً الاقتصار على الشجر [٤] وعن ابن قتيبة الاقتصار على الشجر والجبال [٥] ولعل كل ذلك من باب التمثيل ، وعن ابن السائب أن المراد ظلال البيوت[٦] وهو كما ترى . [٧]

المعنى الإجمالي للآية :

في الآية نعم عددها الله عليهم بحسب أحوالهم وبلادهم ، وأنها الأشياء المباشرة لهم لأن بلاد العرب شديدة الحرارة وحاجتهم إلى الظلال وما يدفع شدته وقوته أكثر فلهذا السبب ذكر الله هذه المعاني في معرض الامتنان عليهم لأن النعمة عليهم فيها ظاهرة وجعل لهم الحيال حافظاً من المطر والريح وغير ذلك وجعل لكم جميع ما يلبس على البدن وقاية من الحر وسائر ما يلبس في الحرب من السلاح تقيكم أن يصيبكم سوء . [٨]

دراسة النص :

الناظر إلى هذا النص يرى أن الإمام الآلوسي حكى خمسة أقوال في المراد بالظلال في الآية وهي كالآتي :

القول الأول : أن الظلال كل ما يستظل به من الغمام والشجر والجبال وغيرها .

---

(١)- سورة النحل الآية ٨١ .

(٢)- هو قول قتادة في الدر المنثور جـ ٩ ، ص ٩٣ ، وجامع البيان جـ ١٤ ، ص ٢٠٣ ، وتفسير ابن أبي حاتم جـ ٧ ، ص ٢٢٩٥ ، ونسبه إلى أبو سليمان الدمشقي ابن الجوزي في زاد المسير جـ ٤ ، ص ٤٧٧ ، وبدون نسبة في الجامع للقرطبي جـ ١٠ و ص ١٥٩ ، وإرشاد العقل السليم جـ ٥ ، ص ١٣٣ ، ولباب التأويل جـ ٣ ، ص ١٠٨ ، والبحر المحيط جـ ٦ ، ص٥٧٧ .

(٣)- هو قول ابن عباس ومجاهد في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٥٧٧ وقول ابن عباس في زاد المسير جـ ٤ ، ص ٤٧٧ ،و الوسيط للواحدي جـ٣ ، ص ٧٦ .

(٤)- هو قول الزجاج وقتادة في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٥٧٧ ، وزاد المسير جـ ٤ ، ص ٤٧٧ ، والوسيط جـ ٣ ، ص ٧٦ .

(٥)- هو قول ابن قتيبة في زاد المسير جـ ٤ ، ص ٤٧٧ ، والبحر المحيط جـ ٦ ، ص ٥٧٧ .

(٦)- هو قول ابن السائب في النكت والعيون جـ ٣ ، ص ٢٠٥ ، وزاد المسير جـ ٤ ، ص ٤٧٧ ، والوسيط جـ ٣ ، ص ٧٦ ، والبحر المحيط جـ ٦ ، ص ٥٧٧ .

(٧)- روح المعاني جـ ٨ ، ص ٣٠٢ .

(٨)- انظر : المحرر الوجيز جـ ٣ و ص ٤١٢ ولباب التأويل جـ ٣ ، ص ١٠٨ .

القول الثاني : أنها الغمام .
القول الثالث : أنها البيوت .
القول الرابع : أنها الشجر والجبال .
ثم استظهر أنها كل ما يستظل به وهذا الترجيح تقويه القاعدة الآتية :
(يجب حمل كلام الله على المعروف من كلام العرب دون الشاذ والضعيف والمنكر)
وهو الراجح لما يأتي :
أولا : أن الظل في اللغة معناه : الشيء الحاصل من الحاجز بينك وبين الشمس ، وكل موضع يكون فيه الشمس فتزول عنه فهو ظل وفئ ويقال لكل ساتر ظل [١] فظاهر كلمة الظلال هي الأشياء التي تظل .
ثانياً : قوله " مما خلق " يعم جميع الأشخاص المظلة [٢] لأن الإنسان قد لا يكون له خيام أو أبنية يستظل بها لفقر أو لعارض آخر فيحتاج لأن يستظل بشجراً أو جدار أو غمام أو نحو ذلك فنبه تعالى على أنه خلق أشياء يستظل بها من شدة الحر والبرد .[٣]
ثالثاً : أن الله تعالى امتن على عباده بأنه خلق لهم ما يستظلون به فيجب حمله على العموم لأنه من نعم الله وهي عامة ، فالله سبحانه لم يذكر شيئا بعينه لأن أنواع ما خلق وكان منه الظلال كثيرة فالجنات تتفيأ ظلالها بالغدو والآصال ، والبيوت فيها ظلال لمن يكون بجوارها وفيها ، والغمام يكف وهج الشمس وحرارتها والسحاب يظلل وغير ذلك كثير .
قال الشوكاني :
" والحاصل أن الظلال تعم الأشياء التي تظل " . [٤]
وعلى هذا فما رجحه الآلوسي من عموم الظلال هو الراجح وهي من النعم العظيمة التي أنعم الله بها على الإنسان وغيره فما الانتفاع بالظل بأقل من الانتفاع بالنور ولولا الظل وهو ظل الليل والأبنية والأشجار والكهوف وغيرها لما عاش على وجه الأرض عائش .

---

(١)- انظر : لسان العرب جـ ٤ ، ص ٢٧٥٥ ، والمفردات ص ٣١٤ ، وبصائر ذوي التمييز جـ ٣ ، ص ٥٣٩ .

(٢)- الجامع لأحكام القرآن جـ ١٠ ، ص ١٥٩ ، والمحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٤١٢ .

(٣)- فتح البيان جـ ٤ ، ص ٦٤ .

(٤)- فتح القدير جـ ٣ ، ص ٢٦١ .

المسألة الخامسة والثلاثون
الحياة الطيبة في الدنيا هي التي تصحبها القناعة

قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١)

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

والمراد بالحياة الطيبة الحياة التي تكون في الجنة إذ هناك حياة بلا موت وغنى بلا فقر وصحة بلا سقم وسعادة بلا شقاوة ، أخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن الحسن قال : ما تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة (٢) وروي نحوه عن مجاهد وقتادة وابن زيد (٣) وقال شريك (٤) هي حياة تكون في البرزخ (٥) وقال غير واحد هي في الدنيا وأريد بها حياة تصحبها القناعة والرضا بما قسمه الله تعالى له وقدره فقد أخرج الحاكم وصححه(٦) وابن أبي حاتم وغيرهم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه فسرها

---

(١)- سورة النحل الآية ٩٧

(٢)- جامع البيان جـ ١٤ و ص ٢٢٤ ، والدر المنثور للسيوطي جـ ٩ ، ص ١٠٩ .

(٣)- هو قو ل الحسن ومجاهد وقتادة وابن زيد في فتح القدير جـ ٣ ، ص ٢٧٣ ، ومجمع البيان جـ٥ ، ص ٤٩٨ ، والجامع للقرطبي جـ ١٠ ، ص ١٧٤ ، وجامع البيان للطبري جـ ١٤ ، ص ٢٢٣ ، وابن كثير في تفسيره جـ ٤ ، ص ٢٢٤ ، وزاد أبي حيان ابن جبير في البحر جـ ٦ ، ص٥٩٢ ، وابن الجوزي في زاد المسير جـ ٤ ، ص ٤٨٩ ، والنيسابوري في غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٣٠٣ ، ونسبه إلى مجاهد وقتادة والحسن الخازن في لباب التأويل جـ ٣ ، ص ١١٣ ، وصديق خان في فتح البيان جـ ٤ ، ص ٧٧ ، وإلى مجاهد وقتادة البغوي في معالم التنزيل جـ ٣ ، ص٨٤ ،والماوردي في النكت والعيون جـ ٣ ، ص ٢١٢ و وابن عادل في اللباب جـ ١٢ ، ص ١٥٣ ، ونسبه إلى الحسن وابن جبير الرازي في مفاتيح الغيب جـ ٢٠ ، ص ٩١ ، وهو قول الحسن في الدر المنثور جـ٩ ، ص ١٠٩ ، وتفسير القرآن لابن أبي حاتم جـ ٧ ، ص ٢٣١ ، والمحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٤١٩ والوسيط جـ ٣ ، ص ٨١ .

(٤) شريك : هو شريك بن عبد الله القاضي ، أبو عبد الله النخعي ، كان من كبار الفقهاء ، وكان بينه وبين أبي حنيفة وقائع ، قال الإمام أحمد : كان عاقلاً صدوقاً ،ومحدثاً توفي سنة سبع وسبعين ومائة (انظر : سير أعلام النبلاء جـ ٨ ، ص ٢٠٠)

(٥) هو قول شريك في زاد المسير جـ ٤ ، ص ٤٧٩ ، والبحر المحيط جـ ٦ ، ص٥٩٢ و وقول السدي في مفاتيح الغيب جـ ٢٠ ، ص ٩١ ، وفتح البيان جـ ٤ ، ص ٧٧ ، وغرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٣٠٣ ، ولباب التأويل جـ ٣ ، ص ١١٣ .

(٦) مستدرك الحاكم جـ ٢ ، ص ٣٥٦ كتاب التفسير .

بذلك [١] وقال أبو بكر الوراق : هي حياة تصحبها حلاوة الطاعة [٢] وأخرج عبد الرزاق[٣] وغيره عن ابن عباس أنه سئل عن ذلك فقال : الحياة الطيبة الرزق الحلال [٤] وروي ذلك عن الضحاك [٥] وقيل : غير ذلك وأولى الأقوال على تقدير أن تكون ذلك في الدنيا تفسيرها بما يصحبه القناعة . [٦]

المعنى الإجمالي للآية :

تضع هذه الآية أصلاً عاماً ، وقاعدة أصيلة ، فالذي يعمل العمل الصالح ، ويؤدي واجبه نحو ربه ، ونحو نفسه وأسرته وقرابته وأمته ، ذكراً كان أم أنثي ، فإن الله يكافئه أحسن مكافأة ، حيث يحيا حياة طيبة ، في رضى وقناعة وسعادة وعز في الدنيا وجزاء

---

(١)- هو قول ابن عباس في تفسير القرآن لابن أبي حاتم جـ ٧ ، ص ٢٣٠١ ، وقول الحسن في الكشاف جـ ٢ ص ٣٤٣ ، والمحررّ الوجيز جـ ٣ ، ص ٤١٩ ، ومعالم التنزيل جـ ٣ ، ص ٨٤ ، ولباب التأويل جـ ٣ ، ص ١١٣ ، والتبيان جـ ٦ ، ص ٤٢٤ ، واللباب جـ١٢ ، ص ١٥٣ ، وقول علي والحسن في الجواهر الحسان جـ ٢ ، ص٢٤٠ ، وجامع البيان جـ ١٤ ، ص ٢٢٣ ، والنكت والعيون جـ ٣ ص ٢١٢ ، وقول الحسن ووهب في مجمع البيان جـ ٥ ص ٤٩٨ ، وقول جميعهم في الدر المنثور جـ ٩ ، ص ١٠٩ ، والجامع للقرطبي جـ ١٠ ، ص ١٧٤ ، وفتح القدير جـ ٣ ، ص ٣٧٣ ، وفتح البيان جـ ٤ ، ص ٧٧ ، وزاد المسير جـ ٤ ، ص ٤٨٩ ، وزاد ابن كثير في تفسيره عكرمة ومحمد بن كعب القرظي جـ ٤ ، ص ٢٢٤ ، والواحدي في الوسيط جـ ٣ ، ص ٨١ .

(٢)- هو قول أبو بكر الوراق في فتح القدير جـ ٣ ، ص ٢٧٣ ، والبحر المحيط جـ ٦ ، ص ٥٩٢ ، وزاد المسير جـ ٤ ، ٤٨٩ ، وبدون نسبة في الكشاف جـ ٢ ، ص ٣٤٣ ، ولباب التأويل جـ ٣ ، ص ١١٣ .

(٣)- عبد الرزاق هو : عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري ، أحد الأعلام ، روى عن أبيه وابن جريج ومعمر وخلق ، وروى عنه أحمد وإسحاق قال ابن أبي حاتم : يكتب حديثه ولا يحتج به ، وقال يحي بن معين ، كان عبد الرزاق في حديث معمر أثبت من هشام بن يوسف ، مات سنة إحدي عشرة ومائتين ، انظر : طبقات الحفاظ للسيوطي جـ ١ ، ص ١٥٨ ، والجرح والتعديل جـ ٦ ، ص ٣٨ .

(٤)- الأثر عند عبد الرزاق في مصنفه جـ ١ ، ص ٣٦٠. ط دار الكتب السلفية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .

(٥)- هو قول ابن عباس والضحاك في الدر المنثور جـ ٩ ، ص ١٠٩ ، والمحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٤١٩ ، وجامع البيان جـ ١٤، ص ٢٢٣ ، والبحر المحيط جـ ٦ ، ص ٥٩٢ ، وزاد المسير جـ ٤ ، ص ٤٨٩ وزاد الطبرسي ابن جبير وعطاء في مجمع البيان جـ ٥ ، ص٤٩٨ ، وكذلك الشوكاني في فتح القدير جـ ٣ ، ص ٢٧٣ ، والقرطبي في الجامع جـ ١٠، ص ١٧٤ وصديق خان في فتح البيان جـ ٤ ، ص ٧٧ ، وهو قول ابن عباس في مسند ابن أبي حاتم جـ ٧ ، ص ٢٣٠١ ، والجواهر الحسان جـ ٢٣ ص٢٤٠ ، والكشاف جـ ٢ ، ص ٣٤٣ .

(٦)- روح المعاني جـ ٨ ، ص ٣٣٤ .

كريم في الآخرة ، مع الفضل العظيم من الله الذي يجازي الحسنة بعشر أمثالها ، ويضاعف لمن يشاء وهو ذو الفضل العظيم . (١)

دراسة النص :

الناظر إلى هذا النص يرى أن الإمام الآلوسي حكى أقوال المفسرين في المراد بالحياة الطيبة على ثلاثة أقوال :

القول الأول : أن الحياة الطيبة في الآخرة وذلك إنما يكون في الجنة .

القول الثاني : أنها في القبر .

القول الثالث : أنها في الحياة الدنيا ثم للمفسرين فيها أقوال :

أحدها : أنها القناعة **والثاني** : حلاوة الطاعة **والثالث** : الرزق الحلال .

ثم اختار الإمام الآلوسي أن المراد حياة طيبة في الدنيا تصحبها القناعة ويقوي هذا الاختيار قاعدتين :

(إذا ثبت الحديث وكان في معني أحد الأقوال فهو مرجح له على ما خالفه)

(إذا دار الكلام بين التأسيس والتأكيد فحمله على التأسيس أولى)

وما رجحه الآلوسي هو الراجح لما يأتي :

أولاً : أولى الأقوال تفسير الحياة الطيبة في الدنيا بما تصحبها القناعة وذلك أن من قنعه الله بما قسم له من رزق لم يكثر للدنيا تعبه ولم يعظم فيها نَصبه ولم يتكدر فيها عيشه بإتباعه بغية ما فاته منها وحرصه على ما لعله لا يدركه فيها .

قال الإمام الطبري :

وإنما كان ذلك أولى التأويلات في الآية :

" لأن الله تعالى ذكره أوعد قوماً قبلها على معصيتهم إياه إن عصوه أذاقهم السوء في الدنيا والعذاب في الآخرة ، فقال تعالى : " ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله " فهذا لهم في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم ، فهذا لهم في الآخرة ، ثم أتبع ذلك ما لمن أوفى بعهد الله وأطاعه فقال تعالى: ﴿ **مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ** ﴾ ، فالذي أوعد أهل المعاصي بإذاقتهم هذه السيئة بحكمته أراد أن يعقب ذلك الوعد لأهل طاعته بالإحسان في الدنيا والغفران في الآخرة وكذلك فعل تعالى ذكره " . (٢)

ثانيا : في الآية الكريمة قرينة تدل علي أن المراد بالحياة الطيبة في الآية : حياته في الدنيا حياة طيبة ، وتلك القرينة هي أننا لو قدرنا أن المراد بالحياة الطيبة : حياته في الجنة صار قوله " ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون " تكراراً معه ، لأن تلك الحياة الطيبة هي أجر عملهم ، بخلاف ما لو قدرنا أنها في الحياة الدنيا ، فإنه يصير المعني فلنحيينه في الدنيا حياة طيبة ولنجزينهم في الآخرة بأحسن ما كان يعمل ، وإذا دار الكلام بين التوكيد والتأسيس رجح حمله على التأسيس وذلك أنا إن

---

(١)- تفسير القرآن الكريم د/ عبد الله شحاته جـ ٧ ، ص ٢٧١٥ .

(٢)- جامع البيان جـ ١٤ ، ص ٢٢٥.

حملنا الحياة الطيبة في الآية على الحياة الدنيا كان ذلك تأسيسا وإن حملناه على حياة الجنة تكرر ذلك مع قوله بعده ولنجزينهم أجرهم لأن حياة الجنة الطيبة هي أجرهم الذي يجزونه . (١)

وإذا تقرر أنها في الدنيا فالمختار بما تصحبها القناعة قال الواحدي : وقول من قال أنه القناعة حسن مختار لأنه لا يطيب عيش أحد في الدنيا إلا عيش القانع ، وأما الحريص فإنه يكون أبداً في الكد والعناء . (٢)

ثالثاً : هذا المعنى الذي رجحه الآلوسي تؤيده السنة الثابتة عن رسول ﷺ منها :

١- ما رواه الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص (٣) أن رسول الله ﷺ قال " **قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً (٤) وقنعه الله بما آتاه** " . (٥) .

٢- ما رواه الترمذي من حديث فضالة بن عبيد الله (٦) أنه سمع رسول الله يقول: " **توبى لمن هدي للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع** ". (٧)

٣- ما رواه الحاكم عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله فلنحيينه حياة طيبة قال القنوع قال وكان رسول الله ﷺ يدعوا يقول " **اللهم قنعني بما رزقتني وبارك لي فيه واخلف علي كل غائبة لي بخير** " . (٨)

---

(١)- انظر:أضواء البيان جـ ٣ ، ص ٣٥٣ ، والبحر المحيط جـ٦ ، ص ٥٩٢ ، والمحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٤١٩ ، والكشاف جـ ٢ ، ص ٣٤٣ .

(٢)- مفاتيح الغيب جـ ٢٠ ، ص ٩٠ .

(٣)- عبد الله بن عمرو : هو عبد الله بن عمرو بن العاص القرشي ، أسلم قبل أبيه ، له مناقب وفضائل ومقام راسخ في العلم ، حمل عن النبي علماً جماً وعن بعض الصحابة ، وكان كثير القيام والصلاة والتلاوة توفي سنة خمس وستين وقيل غير ذلك (انظر : سير أعلام النبلاء جـ ٣ ، ص ٧٩) .

(٤)- الكفاف : الكفاية بلا زيادة ولا نقص : انظر شرح النووي على صحيح مسلم جـ ٤ ، ص ١٢٣ كتاب الزكاة باب في الكفاف والقناعة .

(٥)- صحيح مسلم جـ ٢ ، ص ٧٣٠ كتاب الزكاة باب في الكفاية والقناعة حديث رقم ١٠٥٤ .

(٦)- فضالة بن عبيد الله : هو فضالة بن عبيد بن قيس بن مالك بن الأوس الأنصاري أبو محمد ، أسلم قديماً ولم يشهد بدراً وشهد أحداً فما بعدها ، وكان ممن بايع تحت الشجرة ، وشهد فتح مصر والشام وولاه معاوية قضاء دمشق ، روى عن النبي وأبي الدرداء وروى عنه حبيش الصنعاني وابن رباح وغيرهم ، مات في خلافة معاوية سنة ثلاث وخمسين . الإصابة جـ ٥ ، ص ٢١٠ ، و أسد الغابة جـ ٤ ، ص ٦٠ .

(٧)- سنن الترمذي جـ ٤ ، ص ١٥٦ ، كتاب الزهد باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه حديث رقم ٢٣٥٦ قال أبو عيسى : حديث صحيح .

(٨)- مستدرك الحاكم جـ ٢ ، ص ٣٥٦ كتاب التفسير قال فيه : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

قال الإمام الخازن :

" إعلم أن المؤمن في الدنيا وإن كان فقيراً أطيب من عيش الكافر وإن كان غنياً لأن المؤمن لما علم أن رزقه من عند الله وذلك بتقديره وتدبيره وعرف أن الله محسن كريم متفضل لا يفعل إلا الصواب فكان المؤمن راضياً عن الله وراضيا بما قدره الله له ورزقه إياه ، وعرف أن له مصلحة في ذلك القدر الذي رزقه إياه ، فاستراحت نفسه من الكد والحرص فطاب عيشه بذلك ، وأما الكافر الحريص على طلب الرزق فيكون أبداً في حزن وتعب وعناء وحرص لا يناله من الرزق إلا ما قدر له فظهر بهذا أن عيش المؤمن القنوع أطيب من غيره " . (١)

وهذا هو المختار لأن المؤمن الذي صلح عمله إن كان موسراً فذاك وإن كان معسراً فمعه من القنوع والعفة والرضا بالقضاء ما يطيب عيشه . (٢)

ولا مانع من كون الحياة الطيبة تشمل هذا كله بما فيها من القناعة والرزق الحلال، والسعادة والصحة ، فإن في هذه الدنيا أشياء كثيرة يهنأ بها الإنسان بخلاف المال .

قال صاحب الظلال :

" وإن العمل الصالح مع الإيمان جزاءه حياة طيبة في هذه الأرض ، لا يهم أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال ، فقد تكون به ، وقد لا يكون معها ، وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير ، تطلب بها الحياة في حدود الكفاية ، فيها الاتصال بالله والثقة به ، والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه ، وفيها الصحة والهدوء ، والرضى والبركة ، وسكن البيوت ، ومودات القلوب ، وفيها الفرح بالعمل الصالح ، وآثاره في الضمير وآثاره في الحياة ، وليس المال إلا عنصراً واحداً ، يكفي منه القليل ، حتى يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله ، وإن الحياة الطيبة لا تنقص من الأجر الحسن في الآخرة ، وأن هذا الأجر يكون على أحسن ما عمل المؤمنون العاملون في الدنيا " . (٣)

---

(١)- لباب التأويل جـ ٣ ، ص ١١٣ .

(٢)- غرائب القرآن جـ ٤ ، ص ٣٠٣ ، والكشاف جـ ٢ ، ص ٣٤٣ ، وإرشاد العقل السليم جـ ٥ ،ص ١٣٩ .

(٣)- في ظلال القرآن لسيد قطب جـ ٤ ، ص ٢١٩٣ ، ط دار الشروق ، مصر ، الطبعة الثانية عشر ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

المسألة السادسة والثلاثون

المراد باختلافهم : اختلافهم على نبيهم حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت

في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** ﴾ [١]

قال الإمام الآلوسي :

" على الذين اختلفوا فيه " على نبيهم حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت وهم اليهود وجاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : أمر موسى عليه السلام اليهود بالجمعة وقال : تفرغوا لله تعالى في كل سبعة أيام يوماً واحداً وهو يوم الجمعة ولا تعملوا فيه شيئاً من أعمالكم فأبوا أن يقبلوا ذلك وقالوا : لا نريد إلا اليوم الذي فرغ الله تعالى فيه من الخلق وهو يوم السبت فجعل عليهم وشدد فيه الأمر ، ثم جاء عيسى عليه السلام بالجمعة : فقالت النصارى : لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا فاتخذوا الأحد وكأنهم إنما اختاروه لأنه مبتدأ الخلق [٢] وقيل : المراد اختلفوا فيما بينهم في شأنه ففضلته فرقة منهم على الجمعة ولم ترض وفضلت أخرى الجمعة عليه ومالت إليه بناء على ما روي من أن موسى عليه السلام جاءهم بالجمعة فأبى أكثرهم إلا السبت ورضي شرذمة منهم بها فأذن الله تعالى لهم في السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه فأطاع أمر الله تعالى الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله تعالى قردة دون أولئك المطيعين وروي ذلك عن قتادة [٣] والتفسير الأول تفسير رئيس المفسرين وترجمان القرآن وحبر الأمة المروي عن طرق صحيحة عن أفضل النبيين وأعلم الخلق بمراد رب العالمين . [٤]

المعنى الإجمالي للآية :

أي صير السبت وفرض تعظيمه والتخلي فيه للعبادة وترك الصيد فيه على الذين اختلفوا على نبيهم حيث أمرهم باختيار الجمعة وخالفوه باختيارهم يوماً آخر والاختلاف أمارة أن فيهم من لم يذعنوا للحق ويؤمنوا ، فإنه حيث كان الاختلاف كان الذين يلوون ألسنتهم بالقول من غير إذعان للحق والإيمان ، فإن الإيمان يجعل النفوس تقر وتطمئن ولا

---

(١)- سورة النحل الآية ١٢٤ .

(٢)- هو قول ابن عباس في البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٦١٢ ، والوسيط جـ ٣ ، ص ٩١ ، وزاد المسير جـ ٤ ص ٥٠٥ ، ولبا ب التأويل جـ ٣ ، ص ١٢٣ ، واللباب جـ ١٢ ، ص ١٨٦ ، وغرائب القرآن جـ ٤ ص ٣١٥ ، ومفاتيح الغيب جـ ٢٠ ، ص ١١٠ ، وحاشية الشهاب جـ ٥ ، ص ٣٨١ ونسبه إلى الكلبي البغوي في معالم التنزيل جـ ٣ ، ص ٩٠ .

(٣)- هو قول قتادة في زاد المسير جـ ٤ ، ص٥٠٥ ، وجامع البيان جـ ١٤ ، ص٢٥٢ ، ولباب التأويل جـ ٣، ص ١٢٣ ، وحاشية زاده جـ ٥ ، ص ٣٤٢ ، والوسيط جـ ٣ ، ص ٩١ ، ومعالم التنزيل جـ ٣، ص ٩٠ .

(٤)- روح المعاني جـ ٨ ، ص٣٧٤ .

تنازع وإن الله ليفصل بين المختلفين يوم القيامة ويجازي كل فريق بما يستحقه من ثواب وعقاب . (١)

دراسة النص :

الناظر إلى هذا النص يرى أن الإمام الآلوسي حكى قولين في المراد بإختلاف اليهود وهما :

القول الأول : أن موسى أمرهم بيوم الجمعة وعينه لهم فخالفوه واختاروا السبت .

القول الثاني : أنهم اختلفوا في يوم السبت فمنهم من أحل الصيد فيه ومنهم من حرمه ثم اختار الآلوسي قول ابن عباس مؤسساً ترجيحه على القاعدة التفسيرية :

(إذا ثبت الحديث وكان نصاً في تفسير الآية فلا يصار إلى غيره)

وما ذكره ابن عباس مروي من طرق صحيحة عن أفضل النبيين وأعلم الخلق بمراد رب العالمين منها :

ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : **" نحن الآخرون ونحن السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع اليهود غداً والنصارى بعد غد "** . (٢)

وما رواه مسلم من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

" نحن الآخرون ونحن السابقون يوم القيامة بيد (٣) كل أمة أوتيت الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ثم هذا اليوم الذي كتبه الله علينا هدانا الله له فالناس لنا فيه تبع اليهود غداً والنصارى بعد غد " . (٤)

قال الحافظ ابن كثير :

" لا شك أن الله شرع في كل ملة يوماً من الأسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة وإجتمعت فيه وتمت النعمة علي عباده ، فقد شرعه الله لبني إسرائيل على لسان موسى فعدلوا عنه واختاروا السبت لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً ، فقد فرض عليهم نسك يوم الجمعة وتعظيمه فاختلفوا ومالوا إلى السبت فلم يهدهم الله له وادخره لهذه الأمة " . (٥)

وقال الإمام الرازي :

قوله " على الذين اختلفوا فيه " تبين أنهم خالفوا جميعهم نبيهم حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت ، فاختلافهم في السبت كان اختلافاً على نبيهم في ذلك اليوم أي

---

(١)- زهرة التفاسير جـ ٨ ، ص ٤٣٠٢ .

(٢)- صحيح البخاري جـ ٢ ، ص ١٥٧ ، كتاب الجمعة باب فرض الجمعة حديث رقم ٧٩٢ .

(٣)- بيد : تكون بمعنى غير وبمعنى من أجل ، شرح النووي على صحيح مسلم جـ ٣ ، ص ١١٨.

(٤)- صحيح مسلم جـ ٢ ، ص ٢٥٨ كتاب الجمعة باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة حديث رقم٨٥٥

(٥)- تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٤ ، ص ٢٣٤ وانظر : صحيح البخاري بشرح الكرماني جـ ٥ ، ص ٣ ، ط دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

لأجله وليس معني قوله " اختلفوا فيه " أن اليهود اختلفوا فيه فمنهم من قال بالسبت ومنهم من لم يقل به ، لأن اليهود اتفقوا على ذلك فلا يمكن تفسير قوله " اختلفوا فيه " بهذا بل الصحيح ما قدمناه . (١)

وبهذا نخلص إلى صواب اختيار الآلوسي فاليهود كانوا يختلفون في كل شيء ولا يزالون مختلفين وهم بعيدون عن رحمة الله تعالى .

(١)- مفاتيح الغيب جـ ٢٠ ، ص ١١٠ ، وانظر الفتوحات الإلهية جـ ٢ ، ص ٦٠٥ .

obeikandl.com

المسألة السابعة والثلاثون
(مدنيـــــة)

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ (١)

قال الإمام الآلوسي رحمه الله :

والآية نزلت في شأن التمثيل بحمزة رضي الله عنه (٢) يوم أحد ، فهي على هذا مدنية . وذهب النحاس إلى أنها مكية (٣) وليست في شأن التمثيل بحمزة رضي الله عنه ، وإلى الأول ذهب جمهور المفسرين فالمعول عليه عدم العدول عما قاله الجمهور . (٤)

المعنى الإجمالي للآية :

هذه الآية دعوة إلهية إلى الصبر والاحتمال وهي دستور مفيد للإنسان والجماعات والأمم ،و تعليم حسن الأدب في كيفية استيفاء الحقوق والقصاص وترك التعدي وهو طلب الزيادة أي إن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم واعتدي عليكم فعاقبوه بمثل الذي نالكم به ظالمكم من العقوبة ولئن صبرتم عن عقوبته واحتسبتم عند الله ما نالكم به من الظلم ووكلتم أمره إليه حتى يكون هو المتولي عقوبته كان ذلك العفو والصبر خيراً من استيفاء القصاص . (٥)

دراسة النص :

نلاحظ في هذا النص أن الإمام الآلوسي حكى قولين للمفسرين في مدنية أو مكية الآية وهما ما يلي :

القول الأول : أن الآية مدنية وهو قول جمهور المفسرين

القول الثاني : أن الآية مكية وهو قول النحاس

ثم مال إلى قول الجمهور وهو ميل حميد أصاب فيه الإمام وهو مؤيد بقاعدة :

(إذا صح سبب النزول الصريح فهو مرجح لما وافقه من أوجه التفسير)

وهو الراجح لما يأتي :

أولا : ثبت للآية سبب نزول يبين أنها مدنية وليست مكية ، وذلك فيما ثبت عن أبي بن كعب قال : لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً ، ومن المهاجرين ستة منهم حمزة ، فمثلوا بهم ، فقالت الأنصار لئن أصبنا منهم يوماً

---

(١)- سورة النحل الآية ١٢٦ .

(٢)- حمزة هو : حمزة بن عبد المطلب بن هاشم القرشي ، أبو عمارة ، عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاعة ، أسلم في السنة الثانية من البعثة ، وشهد بدراً وأبلى بلاءً حسناً واستشهد بأحد ، وهو أسد الله وسيد الشهداء (الإصابة جـ ١ ، ص ٢٨٥) .

(٣)- معاني القرآن للنحاس جـ ٣ ، ص ١٨٩ .

(٤)- روح المعاني جـ ٨ ، ص ٣٨٠ .

(٥)- انظر : جامع البيان جـ ١٤ ، ص٢٥٤ ، بتصرف .

لنربين عليهم [١] فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله تعالى " وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين " فقال ﷺ " نصبر ولا نعاقب كفوا عن القوم إلا أربعة " . [٢]

فالآية مدنية نزلت في فتح مكة ، ثم ألحقت بسورة النحل المكية .

ثانياً : مما يؤيد القول أن هذه الآيات مدنية ، ما تضمنته من دعوة المسلمين إلى أن يعاقبوا بمثل ما عوقبوا به ، أو يصبروا على ما أصابهم ، فذلك خير لهم وأولى بهم ، وتلك حال لم تكن للمسلمين في مكة ، إذا كانوا ولا قدرة لهم على رد العدوان بالعدوان وإنما كان الصبر على المكاره هو كل عدتهم في هذا الدور من الصراع الذي كان يبنهم وبين المشركين . [٣]

ثالثاً : كونها مدنية مما أطبق عليه أهل التفسير .

قال ابن عطية :

" أطبق أهل التفسير أن هذه الآية مدنية نزلت في شأن التمثيل بحمزة في يوم أحد " . [٤]

قال القرطبي :

" أطبق أهل التفسير أن هذه الآية مدنية نزلت في شأن التمثيل بحمزة في يوم أحد " [٥] وكذلك قال أبو حيان [٦] والثعالبي [٧] والشنقيطي [٨] وهو القول المختار .

---

(١)- لنربين : لنزيدن ولنضاعفن ، النهاية في غريب الحديث والأثر للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير ٥٤٤ ، ٦٠٦هـ تحقيق طاهر أحمد الزاوي جـ ٢ ، ص١٩٢ ، ط دار إحياء الكتب العربية ، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للحافظ أبي العلي محمد عبد الرحمن المباركفوري ١٢٨٣هـ - ١٣٥٣ هـ جـ ٨ ، ص ٥٦٠ ، ط مؤسسة قرطبة ، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

(٢)- صحيح الترمذي جـ ٥ ، ص ٨٩ كتاب التفسير باب ومن سورة النحل قال أبو عيسي : هذا حديث حسن غريب ، وأخرجه ابن حيان في صحيحه كتاب البر والإحسان باب العفو ، قلا فيه إسناده حسن جـ ٢ ، ص ٢٣٩ ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ط مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م وأخرجه الحاكم في مستدركه جـ ٢ ، ص ٣٥٩ ، قال فيه : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

(٣)- التفسير القرآني للقرآن للشيخ عبد الكريم الخطيب جـ ١٤ ، ص ٤٠٠ ، ط دار الفكر العربي .

(٤)- المحرر الوجيز جـ ٣ ، ص ٤٣٢ .

(٥)- الجامع للقرطبي جـ ١٠ ، ص ٢٠١ .

(٦)- البحر المحيط جـ ٦ ، ص ٦١٣ .

(٧)- الجواهر الحسان جـ ٢ ، ص ٢٤٦ .

(٨)- أضواء البيان جـ ٣ ، ص ٣٨٧ .

ولا مانع من أن تكون الآية عامة فمقابلة الإساءة بالإحسان يجعل المجتمع حافلاً بالمحبة خالياً من الأحقاد وهذا من أهم المقاصد النبيلة لهذا الدين فمعانيها عامة وأوامرها وآدابها مطلوبة للحياة والأفراد .

وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل منها :

قوله: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ (١)

وقوله: ﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ﴾ (٢)

وقوله: ﴿ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (٣)

---

(١)- سورة الشورى آية ٤٠ .

(٢)- سورة المائدة آية ٤٥ .

(٣)- سورة الشورى آية ٤١ – ٤٣ .

obeikandl.com